الباب التاسع

انفصالى عن الستالينية

يوجد تعبير خاص فى محيط القياديين الشرقيين للشك والتردد ، وللآراء التى لا تتفق مع الخط الرسمى ، ذلك التعبير هو : « مغص سياسى » ، فمعظم القياديين يحرصون على عدم ظهور « مغصهم السياسى » ، وبعضهم يخبر به أصدقاءه المقربين فى ظل تكتم شديد .

ومن الطبيعى أن نوع « المغص السياسى » يختلف باختلاف عمل المصاب به داخل الحزب ، أو فى المجال الاقتصادى ، أو فى الادارة . ولنوع ثقافته السياسية و « رتبته » فى سلم طبقات الحزب دخل فى ذلك أيضا . وهكذا توجد أنواع من « المغص السياسى » داخل طبقات القياديين المختلفة ، ولكنها كلها تتفق فى صفتين :

الأولى : ليس له علاقة بالاعتراضات « الغربية » ، ولا بمفهوم الحياة عند « الغربى » ، بل هو تعبير عن المعارضة ، وآراء داخل النظام نفسه ، تعبير عن التناقض بين نظرية « ماركس ولينين » من ناحية ، وبين النظرية والتطبيق « الستالينى » من ناحية أخرى .

الثانية : لا يخبر بهذا « المغص السياسى » أحد ، لا يكون عضوا فى الحزب ، ولا حتى الاشارة اليه أمامه . ومن الممكن أن يحدث — وقد شاهدت هذا مرارا — أن يدافع القيادى المصاب « بالمغص السياسى » فى مناقشته مع أناس من الغرب دفاعا مستميتا عن خط الحزب الرسمى . فبعتقد الغربى الذى يتناقش معه بأنه « ستالينى » مائة فى المائة ، ويرى أن المناقشة كلها لا فائدة فيها ، ولا معنى لها ، بينما الحقيقة ، أن القيادى المعارض ينقل حديثه الى الأوساط المعارضة بالتفصيل ، ويتناقشون فيها ساعات طويلة .

* * *

المغص السياسى

كلما زاد توترى آنذاك ، كلما ملأت وقتى كله بالنشاط الحزبى — كما هو الحال عند كل القياديين الشرقيين ، اذا اعترتهم هذه الحالة —

غير أنه لم يمكن منع ظهور الشك والأفكار الانتقادية • ولم يكن من النادر ان تستيقظ الدريات والأحداث المؤلمه ، التى دخلت العقل الباطن منذ وقت طويل :

القبض على أمى ، والطرق على بابها دون فائدة •

بلبلة الأفكار ، والخوف الذى تسلط على أعصابى سنين عديدة ، بسبب القضايا ، وعمليات القـاء القبض ، ورعب الناس فى موسكو فى عامى حركة التطهير الكبرى من ١٩٣٦ الى ١٩٣٨ م ، وأخيرا — وهو أسوأ من كل شىء — اصابتهم باللامبالاة •

القبض على صديقى « رولف » من عنبر النوم فى بيت الأطفال فى مارس سنة ١٩٣٨ م •

المعاهدة مع ألمـانيا الهتلرية ، وما أعقبها من اقصاء كل المؤلفات المناهضة للفاشية •

اجراءات العقاب الصارم ضد العمال فى صيف عام ١٩٤٠ م •

نظرة الخوف والرعب التى لاحظتها فى عيون الطلبة الذين أخبرونى فى تكتم تام أنهم أجبروا على العمل لحساب (N.K.W.D.) — وزارة الداخلية السوفييتية •

الجائعون فى « كراجندا » ، وفى « أوفا » ، فى حين أن القياديين من الطبقة العالية ، لم يتسعروا بهذه الأزمة فى التموين •

الجو المرعب فى أمسيات « النقد الذاتى » فى مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ، وخاصة عندما طرد الرفيق «فيلى » •

عيون القيادى — الذى طرد من مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية — الحزينة ويده التى امتدت الى فى « أوفا » راجية اعطاءه قطعة من الخبز •

تكبر « أولبريخت » على الرفقاء فى ألمـانيا ، الذين ناضلوا هناك فى حركات سرية ، وقسوته وعنفه فى النزاع مع « كونين » فى جلسة اللجنة المركزيـة ، وخبثه وخدعـه الذى هزم بهمـا الديمقراطيين الاشتراكيين فى انتخابات النقابات العمالية فى برلين •

كان هناك بعض الأشياء الأخرى أزعجتنى ، ولكنى كنت أبعدها عن تفكيرى ، وأحاول عدم ذكرها ، لأنها لا تناسب الصورة ، التى تربيت عليها ، ولأنى لم أرد أن أفسح لها المجال لتضايقنى فى عقيدتى ، وفى نشاطى ، وفى آمالى •

كلما زادت كمية ثقافتى ، كلما زادت الوسائل التى توضع فى يدى لتبرير كل شكوكى على مستوى « عال » ، بواسطه التفوق النظرى المعقد ؛ اذى يفوق الدعاية الرسمية للجماهير •

ولكن ازدادت شكوكى فى جانب آخر ، اذ سرعان ما تأكدت أنى لست وحدى — وخاصة أولئك القياديين الذين تلقوا دروسا سياسية ، فقد قطع هؤلاء شوطا بعيدا فى الزندقة • كانت آمالنا متجهة أولا الى ألا ينفذ التطور الاشتراكى فى ألمانيا بنفس الأسلوب والشكل الذى عرفناه فى الاتحاد السوفييتى • كنا نرغب فى الاستقلال عن الاتحاد السوفييتى ، وفى انتهاج طريق مستقل الى الاشتراكية •

وكنا ندعم هذا الاتجاه باشارة من « ماركس » ، و « انجلز » ، و « لينين » ، كان يعرفها كل واحد منا ، وكنا نلقنها للآخرين ، فانتقلت من واحد الى آخر •

كنا جميعا نعرف اشارة « ماركس » من خطابه فى « امستردام » فى ١٥ سبتمبر سنة ١٨٧٢ م حيث قال فيه :

« يجب أن يملك العمال يوما ما السلطة السياسية فى أيديهم ، ليؤسسوا نظاما جديدا للعمل •• ولكننا لم ندع أن الطريق للوصول الى هذا الهدف واحد فى كل مكان ، فنحن نعلم أنه يجب مراعاة المؤسسات والعادات والتقاليد فى المناطق المختلفة » •

كذلك أشار « لينين » فى خريف عام ١٩١٩ م الى أن الشعوب « لا تصل بطريق مماثل » الى الاشتراكية ، بل تضفى خواصها على الجوانب المختلفة فى الحياة الاجتماعية •

وفى المؤتمر الثامن للحزب الذى عقد فى مارس ١٩١٩ م ، أنذر « لينين » وفود الأحزاب البلشفية :

« لا ينبغى للمرء أن يتلقى الأوامر من روسيا » •

وفى خطابه فى المؤتمر الثالث لجبهة الأحزاب الشيوعية العالمية بين للرفقاء الأجانب : « أنه لا يجوز للشيوعية العالمية أن تقلد الروسيين تقليدا أعمى » •

أعجبتنى بنوع خاص كلمة « لينين » فى المؤتمر الرابع للشيوعية العالمية فى عام ١٩٢٢ م ، عندما استهزأ بالقياديين الأجانب الذين يعتبرون الثورة الروسية « صورة مقدسة يعلقونها فى ركن ، ويصلون أمامها » •

لم يكن رأى « آكارمان » الذى نشر فى نهاية عام ١٩٤٥ م والذى دعا فيه الى اتخاذ طريق ألمانى مستقل الى الاشتراكية ، كافيا عند بعض القياديين القلقين على الوضع فى المنطقة السوفييتية ، لأنه على الرغم من هذه الدعوى ، فقد كنا فى الجانب العملى ، نؤيد الطريق السوفييتى ، وندعم الاجراءات السوفييتية .

كلما زاد الارتباط بسلطة الاحتلال السوفييتى ، وبالاتحاد السوفييتى وضوحا ، كلما اشتد ألم « المغص السياسى » ، واتسع الحديث حول هذا الموضوع بين « الأصدقاء المقربين » . آلمنا التفكير فى احتمال أن نتحول الى لطريق ، الذى سلكه الاتحاد السوفييتى فى عهد « ستالين » ، ووجهت الأسئلة الينا — نحن الذين شاهدنا الوضع فى الاتحاد السوفييتى بأعيننا — من بعض القياديين الآخرين — فى جلساتنا الخاصة — عن حقيقة الوضع فى الاتحاد السوفييتى . ولم ينقطع التقاء اللاجئين السياسيين السابقين ، مع المناضلين فى الحركات السرية فى ألمانيا ، ومبادلة الأفكار التى تقلقهم حول بعض الاجراءات .

هل كانت معاهدة « هتلر — ستالين » اتفاق ضرورى فى السياسة الخارجية فقط ؟ ماذا كان الوضع بالنسبة لتحرير غرب « أوكرانيا » وروسيا البيضاء ؟

ألم يمتنع تحقيق ذلك نتيجة الاتفاق مع ألمانيا الهتلرية ؟

ألم يكن ذلك — يخجل المرء من الحديث فى هذا الموضوع — فى حقيقته ، تقسيما استعماريا لبولندا ؟

والحرب فى فنلندا ؟ ألم يكن الاتحاد السوفييتى ، هو الذى هاجم هذه الدولة ؟ ألم تكن عبادة الزعيم ، والتركيز المستمر على « قيادة ستالين العبقرية » و « عصمته من الخطأ » شيئا يتعارض مع الأفكار الأصلية لحركة اشتراكية حية ؟

ألم يطالب « ماركس » عند انضمامه لـ« رابطة الشيوعيين » أن يزال من النصب كل ما يوحى بسيطرة العقائد الخرافية ؟

ألم تبين « روزا لوكسمبرج » ظهور الأخطاء « التى ترتكبها الحركات العمالية الثورية الحقيقية ، وهى من الناحية التاريخية أكثر خصوبة وأعلى قيمة من عصمة أحسن اللجان المركزية من الخطأ ؟

ألم تتعارض النظريات ، التى يطبقها « ستالين » فى الحزب مع

أفكار « ماركس » و « انجلز » عن حزب العمـــال ؟ « كل الأعضاء أخوة متساوون ، ويجب عليهم مساعدة بعضهم فى كل المواقف » •

هذا ما جاء فى دستور رابطة الشيوعيين التى أسسها « ماركس » و « انجلز » • ولكننا نقرأ عند « ستالين » :

« يوجد فى صفوف حزبنا — اذا نظرنا الى طبقة القيادة — عدد يتراوح بين ٣٠٠٠ و ٤٠٠٠ زعيما كبيرا ، هؤلاء هم هيئة اللواءات فى حزبنا •

ثم يأتى بعد ذلك عدد يتراوح بين ١٠٠ر٠٠٠ ، و ١٥٠ر٠٠٠ تحت القيادة ، ويمكن أن نطلق عليهم هيئة مساعدى الضباط فى حزبنا » •

لم نستطع — فكريا — هضم هذا التعارض الواضح بين الرأى « المـاركسى » القـائل بالأخوة داخـل الحـزب ، وبين التقسيـم « الستالينى » لأعضاء الحزب الى ضباط ومساعدى ضباط •

ألم تتعارض أيضا دعوى زعامة الحزب الشيوعى السوفييتى ، الانفصال عن « الدور السابق » للاتحاد السوفييتى تعارضا مباشرا مع أسس الحركة العمالية ومع مبادىء « ماركس » و « لينين » ؟

ألم يكتب « فريدريش انجلز » فى مقدمة كتابه « حرب الفلاحين الألمـانية » فى عام ١٨٧٤ م :

« ليس من مصلحة هذه الحركة اطلاقا ، أن عمال أى أمة بذاتها يسيرون فى المقدمة » •

نتذكر أيضا كلمة « لينين » فى ثورة نوفمبر سنة ١٩١٧ م :

« انه لشرف كبير للبروليتاريا أن تبدأ •• سلسلة الثورات ، غير أن التزام أفكار البروليتاريا الروسية فى انتقاء البروليتاريا من بين عمال البلاد الأخرى غريب علينا » •

وسياسة « ستالين » ؟ !

ألم تكن المبالغة فى كل ما هو روسى ، واظهار الشعب الروسى على أنه « زعيم كل الأمم » ابتعادا كليا عن مبادىء الاشتراكية فى السياسة الدوليـــة ؟

ناقشنا موضوع « التطهير » مرارا ، وخاصة حركة التطهير الكبرى فى الأعوام من ١٩٣٦ الى ١٩٣٨ م • مضى عليها عشر سنوات الآن ، ومع ذلك كنا نعود الى مناقشتها بين الحين والآخر •

ألم يكونوا رفقاء « لينين » فى النضال ، وأبطال ثورة أكتوبر ، حصدتهم وزارة الداخلية الروسية ؟

ألم يكن مئات الآلاف الذين وقعوا ضحايا حركة التطهير الكبرى ، من المناضلين فى الحرب الأهلية ، ومن قدامى البلشفيين ؟

أيمكن أن يكون من المصادفة أن يحرم الاجتماع على البلشفيين القدامى قبل التطهير ، اذا رجعت اليوم بذاكرتى الى « أحاديثنا الخاصة » فى ذلك الوقت ، فأعتقد أن « مغصنا السياسى » يتلخص فى النقاط التاليـــة :

١ ــ خضوع الاتحاد لاشتراكى الألمانى ــ أو الحزب « الستالينى » فى بلد آخر ــ للاتحاد السوفييتى : والحزب الشيوعى السوفييتى ، معارضـــا بذلك مساواة الحركات العمالية فى كل البلاد ، تلك المساواة التى طالب بها « ماركس » و « انجلز » .

٢ ــ الدعوى « الستالينية » بأن تقتفى البلاد الديمقراطية الشعبية ــ ويقصد بها الدول الشرقية ، الدائرة فى محور الاتحاد السوفييتى ــ طريق الاتحاد السوفييتى ، معارضة بذلك اعلان « ماركس » و « انجلز » بأن التطور الى الاشتراكية فى كل بلد ، يجب أن يسـير مطابقا للظروف الاقتصادية والسياسية والثقافية الخاصة بتلك البلد .

٣ ــ المبدأ الذى نادى به « ستالين » بتقوية سلطة الدولة فى الاتحاد السوفييتى ، وفى بلاد الكتلة الشرقية ، معارضا بذلك نظرية « ماركس » و « لينين » ، التى تقرر بأن التطور الاشتراكى ، يؤدى الى اضعاف الدولة ، ثم فى النهاية الى انزوائها .

٤ ــ السلطة المطلقة لمديرى مؤسسات الدولة فى الاتحاد السوفييتى ، وفى بـــلاد الكتلة الشرقية ، وهو أمر يتعرض مع ما طالب به « ماركس » و « لينين » من أن قيادة المؤسسات الصناعية الاشتراكية يجب أن تكون فى يد مجالس عمالية منتخبة .

٥ ــ دعوى عصمة الزعامة العبقرية من الخطأ ، وخرافة السيادة فى « الستالينية » التى تتعارض مع الاستعداد والنية الخالصـــة فى معالجة المشاكل بحرية تامة ، كما نجدهـــا فى مؤلفـــات « ماركس » و « انجلز » وكذلك عند « لينين » .

٦ ــ اضطهاد حرية الرأى فى الحزب ، التى وضحت عندنا بصفة

خاصة عندما قرأنا فى مؤلفات « لينين » عن المناقشات الحرة المفتوحة ، كما كانت العادة سابقا فى الحزب البلشفى •

٧ — التمييز الكبير بين القياديين فى الحزب والدولة ، وفى المجالات الاقتصادية ، وهو يعارض نظريه « ماركس » و « انجلز » و « لينين » التى تقضى بأنه لا يجوز لأحد فى المجتمع الاشتراكى أن يتقاضى مرتبا أعلى من أجر العمل الذى يقوم به •

٨ — الازدياد المستمر فى اجراءات الاضطهاد وكبت الحريات ، وهو يعارض المبادىء التى وضعها « ماركس » و « انجلز » بأن تحديد الحريات يجب أن يكون اجراء مؤقتا فقط ضد مستغلى الطبقات ، ثم يرفع بعد تجريدهم من سلطتهم ، ويستبدل باجراءات تضمن الحرية الكاملة لكل العاملين فى الدولة •

ظهر هذا « المغص السياسى » — الذى لخصت أسبابه — عند أولئك الناس الذين انتقدوا هذه الظواهر على أساس تجاربهم الخاصة ، ومشاهداتهم الشخصية ، وكونوا لأنفسهم رأيا خاصا بهم • وكيفما كان الأمر ، فقد كانت مشاكل حركتنا ، فتحدثنا عنها فى أحاديثنا الخاصة • ولم يكن من النادر أن يجد المرء فى مكتبة المعهد العالى للحزب خطوطا عريضة تحت هذه النصوص ، التى استشهدنا بها هنا ، وطبعا تحت نصوص أخرى ، تتعارض مع السياسة الستالينية •

كانت هذه النصوص بالنسبة لنا — نحن الذين تعلمنا فى الشرق ، وتشكلت أيديولوجية طباعنا — تجارب شخصية مؤلمة ، فهى التى أكدت شكلنا ، وعمقت قلقنا ، وكانت دليلا على صحة أفكارنا المناوئة • بدأت المعارضة عند الذين نشأوا داخل النظام « الستالينى » ، وعند القياديين الذين تربوا على أيديولوجية من الموقف « الماركسى » كدفاع عن نظرية « ماركس » و « انجلز » و « لينين » ضد التحريف التى تقوم به « الستالينية » •

* * *

الطرود الخاصة والطبقة المفضلة

كان تمييز القياديين وتفضيلهم على الآخرين احدى المساوىء الكبيرة ، والسبب الدائم « للمغص السياسى » : فلم أعرف أنا وأصدقائى — نحن الذين نشأنا فى الاتحاد السوفييتى — هناك شيئا آخر ، ولا

رأينا فى بادىء الأمر غضة فى التفضيل المادى لقيادى الحزب فى الدولة ، وفى المجالات الاقتصادية : نعم .. تبين لى قبل ذلك — فى عام ١٩٤٢ م فى « كاراجندا » — أن من الظلم أن يكون هناك فى زمن الحرب فرق شاسع ، فالجماهير العريضة من العمال — وكذلك أيضا كثير من أعضاء الحزب — يعانون من ألم الجوع القاتل ، بينما لا يشعر بعض القياديين بأى نقص فى المواد الغذائية عندهم ، ولكنى اعتبرت تفضيل القياديين بأنه مبالغة فقط ، وليس هو الحقيقة بذاتها .

دفعت مصادفة الى التفكير فى هذه المظاهر ، كنا فى أكتوبر سنة ١٩٤٥ م فى بداية الحملة الدعائية الكبيرة للوحدة . كنت آتيا من مكتبى وأردت الذهاب الى صالة الطعام فى اللجنة المركزية ، فاستوقفنى على السلم رجل حسن المظهر والملبس ، متوسط العمر قائلا :

— « لا تؤاخذنى أيها الزفيق .. هل تشتغل هنا » ؟

— « نعم .. فى قسم الدعاية السياسية » .

— « هذا ما أريده بالضبط : فأنا قيادى فى الحزب الشيوعى الألمانى من الغرب ، وجئت الى هنا بناء على دعوى وجهت الى . وقد أعطيت منذ لحظة « ماركة » للأكل ، ولكنى لا أعرف أين صالة الطعام » ؟

— « هذا يتوقف على نوع « الماركة » التى معك » .

نظر الى مندهشا ، ثم أطلعنى على نوع « ماركته » ، لقد كانت واحدة من الطبقة رقم ٣ ، وهو نوع يعطى « للعاملين غير المهمين » . فشرحت له كيفية الوصول الى مكان تناوله الطعام .

— « قل لى .. هل يوجد أنواع مختلفة من « الماركات » ؟

— « طبعا .. يوجد أربعة أنواع مختلفة من « الماركات » تبعا لعمل القيادى ، فالاثنان الأخيران هما للعمال الفنيين والمستخدمين » .

— « نعم ! ولكن .. أليس الكل رفقاء » ؟ !

— « طبعا .. — أيضا عاملات النظافة ، والسائقون ، والحراس ، كل أولئك أعضاء فى الحزب ، انضموا اليه بعد اختيار » .

نظر الى فزعا ، ثم قال :

— « ماركات » مختلفة ، وطعام مختلف .. ولكن الكل رفقاء » !

أدار ظهره دون أن يحيينى وذهب ، وبعد لحظات سمعت صرير الباب الرئيسى ، لقد غادر الرفيق مبنى اللجنة المركزية .

اتجهت الى صالة الطعام ممعنا التفكير فيما حـدث ، فاخترقت الحجرات التى يتناول فيها الطبقتان ٣ ، ٤ — الطبقتين السفليتين — طعامهما . فاعترانى شعور بالانقباض ، عندما فتحت باب القسم الخاص بطبقتنا • فهنا •• على المناضد المغطاة بالمفارش البيضاء يتناول العاملون من الطبقة العالية طعامهم المكون من أصناف متعددة • غريب أنى لم ألحظ ذلك قبل اليوم قط !

ثم فكرت فى « الفيللات » الفخمة فى « نيدرشونهاوزن » حيث يسكن « بيـك » و « جروتيفول » و « أولبريخت » و « داليم » وآخرون • وكنت أذهب الى هناك زائرا كل أسبوع تقريبا • وأرى السور المضروب حول الحى كله ، وقد وقف على مدخليه حراس من الجنود السوفييت •

قلت ذات يوم لأحد القياديين الذين يسكنون هناك :

— « حسنا •• أوافق على أن اجراءات الأمن ضرورية ، ولكن هل يلزم أن يكون الحراس من الجنود السوفييت ؟ طبعا أنتم تحتاجون الى سكن فسيح ، ولكن هل يلزم أن يكون « فيلا » فاخرة ؟ هذه ليست المشكلة الأساسية ، ولكن يمكن أن تثير الامتيازات فى زمن القحط العام مرارة وحقدا عند الشعب » •

فضحك القيادى ضحكة ساخرة :

— « ماذا تفعل ، لو أمكنك فعل شىء » ؟

— « أقترح أن يسكن كل أعضاء السكرتارية المركزية فى شقق — مكونة من ثلاث أو أربع حجرات — فى أى مكان داخل الحى ، الذى يوجد فيه مقر عملهم • ويمكن أن يسكن فى الدور الأرضى بعض الرفقاء — ربما من الأعضاء السابقين فى رابطة مناضلى الجبهة الحمراء — ليقوموا بأعمال الأمن الضرورية ، بالضبط كما يقوم بها جنود الجيش الأحمر » •

بدت علامات الجد على وجه القيادى •

— « لم أتوقع منك هذا الرأى المتخلف ، هذا يعنى التراجع أمام الدعاية المعادية ، فهذا ليس شيئا آخر سوى الرجوع الى فهم الفرد العادى بأن كل شىء متساويا • لماذا لا يسكن زعماؤنا فى هذه الفيللات ؟ هل تريد أن تعيدهم الى النازية ؟

فأجبته : « لم أقل هذا اطلاقا ؛ أنا ضد هذه « الفيللات » الفاخرة فى زمن القحط العام ، فى وسط الصراع السياسى فى برلين ، حيث من المعروف

للجميع أن الزعماء الديمقراطيين الاشتراكيين فى الغرب يعيشون حياة أكثر تواضعا ، وحتى العجوز « كولس » من الحزب الديمقراطى الليبرالى يعيش فى مكان ما فى شقة بالايجار مكونة من ثلاث حجرات » .

— « أحيانا يعترينى شعور بأنك — على الرغم من مركزك المهم — ثورى مشاغب » .

تلفظ بكلمة « ثورى مشاغب » بتردد البارد المعروف عن المتحمسين للجهاز . توقفت عن الكلام . ومن الطبيعى أن « الفيللات » بقيت ، وكذلك الحراس السوفييت . وكلاهما أصبح أغنية انتخابية رددها أعضاء الحزب الديمقراطى الاشتراكى فى حملته الدعائية فى انتخابات أكتوبر سنة ١٩٤٦ م فى برلين .

ويجب أن أذكر هنا أن بعض الرفقاء رفضوا السكن فى حى « الفيللات » ولكن الاشارة بأن ذلك من مصلحة الحزب ، كانت قوية وكفيلة باخضاعهم لارادة الحزب ، وقبول السكن فى الفيللات . وبعضهم لم يشعر بالراحة من السكن فى منازل فاخرة ، وشعر — كقيادى عامل — بوخز الضمير ، أما الآخرون فقد اعتادوا على الوضع الجديد بسرعة ، وألفوا أوضاع حياتهم الجديدة . سرت نكتة ظريفة — همسا — بين القياديين الذين يفكرون تفكيرا مستقلا : « بعد وجبة طعام دسمة ، تمطع قيادى كبير ، وصاح فجأة : ن من الجميل حقا أن تكون فردا من الطبقة الحاكمة » !

لم تكن « الفيللات » ، وتركيب الطبقات فوق بعضها فى توزيع الطعام هما فقط مميزات القياديين الكبار ، اذ لم يمض وقت طويل على تأثيث مبنى اللجنة المركزية فى شارع « فال » وافتتاحه ، حتى علمنا أن منزلا هيىء ليقضى فيه أعضاء جهاز اللجنة المركزية فترات استجمام ، ويوجد هذا المنزل فى « بيرنيكى » بالقرب من « بيرناو » ، وأثث — بالنسبة لذلك الوقت — تأثيثا فاخرا ، ويحيط به منتزه كبير ، وهو معزول تماما عن العالم الخارجى . كان الطعام هنا فاخرا بدرجة تجعل الطعام فى اللجنة المركزية — بالنسبة له — يبدو متواضعا جدا . هنا نقضى أيام الأجازات ، وأحيانا يرسل بعض القياديين بعد القيام بعمل خاص الى « بيرنيكى » ، كى يسمنوا مرة أخرى .

ويجب ألا ينسى شىء هنا : كلما كانت الامتيازات كبيرة ، كلما كانت الأعمال التى يطلبها الحزب من القيادى كبيرة أيضا ، وغالبا ما كانوا

يخدمون الحزب حتى ينهكون تماما ، فاذا تعبوا جسمانيا وعصبيا ، يجوز لهم أن يستجموا وقتا قصيرا • ولكن هؤلاء القياديين الذين لا يستطيعون القيام بالمهمات التى يكلفون بها لأسباب صحية ، أو بسبب التقدم فى السن — باستثناء قياديى الطبقة العليا — يلفظون كما تلفظ الليمونة بعد أن تعصر • كان هذا مبدأ النفعية بأعلى أشكاله •

نظمت الامتيازات بعناية طبقا لدرجة القيادى ، فكان بيت الاستجمام فى « بيرنيكى » فى بادىء الأمر لكل القياديين فى جهاز اللجنة المركزية ، غير أنه حدث تفريق بينهم فيما بعد ، فقد جهز بيت استجمام على مستوى عال فى « زيهوف » للأعضاء الكبار فى سكرتارية اللجنة المركزية •

كان نظام التفريق بين الطبقات مطبقا أيضا فيما كان يطلق عليه Tajoks تلك الطرود الكبيرة من المأكولات ، والتبغ ، والمشروبات الكحولية ، والشيكولاتة التى كنا نحصل عليها بصفة مستمرة ، علاوة على بطاقات المواد الغذائية ، وتموين اللجنة المركزية ، ولما كانت هذه الطرود غير مقصورة على القياديين الكبار والمتوسطين فقط ، بل كانت أيضا للقياديين فى الجهاز الادارى والاقتصادى ، وللعلماء والأخصائيين والشعراء والفنانين ، فقد تدرجت بدقة تامة ، ويحدد ذلك أهمية الحاصل على الطرد ، ونوع العمل الذى يقوم به •

لم يوجد بيان رسمى بذلك اطلاقا ، فاذا تحدث المرء مع « أحد المخلصين للينينية » حول هذا الموضوع ، يجيبه ببساطة : « حماة الدولة ! فالرفقاء مكلفون بعمل كثير ، ولذا من المسلم به أن يتخلصوا من الهموم المادية » •

من الممكن أن يكون هذا صحيحا ، ولكنه لا يفسر اطلاقا تدرج توزيع الطرود حسب الطبقات ، بعضها فوق بعض • وبالاضافة الى ذلك ، ألم يكلف العمال فى المصانع والمناجم ، والقياديون من الطبقة الدنيا « الذين لا يحصلون على طرود » أيضا بعمل شاق يؤدونه ببذل كل ما عندهم من طاقة ؟

قابلت فى « زاكسين » أحد القياديين فى الحزب ، وكان يعمل فى « رابطة النقابات العمالية الحرة » ، ويعرف الوضع فى المصانع معرفة جيدة • وثق بى ، وأراد ذات مرة أن يفرغ كل ما فى قلبه •

قال لى :

— « حديث خاص بينى وبينك • نحن نشعر هنا فى الطبقة الدنيا

بالارتباط الروسى أكثر منكم فى الطبقة العليا ؛ حيث تسير الأمور بشكل أكثر أدبا ؛ فللطرود الخاصة سنارة ... » .

ـ « أستطيع ادراك هذا ، فالعمال حانقـــون بالتأكيد على هذه الظاهرة » .

ـ « هذا أيضا .. ولكن هناك شىء آخر » .

وروى لى مصير أحد « قياديى الطرود » :

رفيق ممتاز ؛ كان فى اللجنة المركزية أعواما طويلة ، ثم عاد الى مصنعه ، فحياه العمال بحرارة ، فأصبح بسرعة قياديا ، واعتبر « الرجل الأول » فى المصنع . ثم جاءت عملية فك وازالة آلات المصنع ، فبين الروسيون له ، أنه يجب عليه أن يبرر عملية الفك للعمال ، فاذا انتهت هذه العملية ـ هكذا وعده الروس ـ فيكون قد زال كل شىء ، ويستطيع العمال أن يباشروا عملهم دون عقبات .

صـــدق الرفيق ذلك ، ووثق العمـــال بكلامه ، فنفذت عملية فك الآلات ، واعتقد العمال أن كل العقبات قد زالت ، فذهبوا متحمسين الى المصنع ، وأحضروا من مكان ما آلات ، وبنوا المصنع . ليس بالدرجة التى كان عليها سابقا ، ولكن على أى حال سار العمل فى المصنع .

مضت بضعة أشهر ، ثم استدعى الرفيق مرة أخرى لمقابلة الروسيين ، فأخبروه بأن ماكينات مصنعه ستفك من جديد . ناقشهم فى ذلك ، وذكرهم بوعدهم عند عملية الفك الأولى ، وبوضعه فى المصنع ، وبسمعة الحزب ، ولكن كل ذلك لم يفد شيئا ، فالروسيون مصرون على تنفيذ عملية الفك الثانية ؛ فرفض أن يقوم بمحاولة اقناع العمال بقبول هذا العمل .

ضحك الضابط الروسى ضحكة استهزاء ثم قال له :

ـ « اذا لم تفعل هذا فسوف أخبر العمال بما أخذته من طرود وبالامتيازات الخاصة التى حصلت عليها » .

ثم أخرج قائمة فى أثناء ذلك ، كتب فيها كل شىء ، وقد تجمع فى العام والنصف أعداد كبيرة مما حصل عليه ، ولم يدرك الرفيق مغزى اعطاء الطرود الا فى هذه اللحظة .

وفى اليوم التالى برر أيضا فك المـــاكينات وأخذها أمام العمال ؛ ولكنه لم يكن الرفيق المعهود سابقا ، فقد أصبح انسانا محطما .

بعدما سمعت هذه القصة ، فهمت أيضا أن الطرود لم تكن فقط

مساعدة اضافية للرفقاء الذين يضحون فى العمل ؛ ولم تخدم فقط حماة الدولة ...

* * *

الدعايـــة الغربيـــة

يندهش الناس فى الغرب عندما أقول أننى منذ عام ١٩٤٥ م وأنا أقرأ الجرائد الغربية كل يوم • ثم يوجه الى هذا السؤال :

— « ثم ماذا ؟ •• كيف أثرت عليك » ؟

وللأسف لا أستطيع أن أجيب الا بـ: « لم تؤثر اطلاقا • اذا استطاع المرء أن يتحدث عموما عن تأثير — بصرف النظر عن استثناءات قليلة جدا — فليس الا أن هذه القراءة أخرت انفصالى عن « الستالينية » •

كانت ثلاثة أرباع مساحة الجرائد الغربية — التى اضطرت الى الملاءمة مع مزاج القارىء الغربى — لا تزال موقوفة على أحداث لا تهم القياديين المعارضين ؛ فقد كتبت معظم المقالات والتعليقات بلغة يفهمها القيادى ؛ الذى تثقف فى الشرق ؛ ويستطيع بطريقة ما أن يدخل بفكره فيها ، ولكنها لا تخاطبه اطلاقا •

اذا تحدثنا عن المقالات « الغربية » استقبحنا الصياغة غير العلمية فى الصحافة الغربية • ولمـــا كانت كل الاصطلاحات السياسية مثل : الشعب ، والديمقراطية ، والحرية ، والأمة ، والاشتراكية ، محدد معناها عندنا تحديدا دقيقا ، فقد بدا لنا أن كل استعمال لا يطابق تحديدنا فهو غير علمى ؛ كتبه أناس — هكذا عبرنا آنذاك — ليس لديهم الثقافـــة الأساسية فى السياسة •

وطبيعى أن اهتمامنا كان مركزا على الأخبار والمقالات التى كانت تتعلق بالمنطقة الألمـــانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتى ، أو بالاتحاد السوفييتى ، والبلاد الديمقراطية الشعبية • لم نستطع آنذاك سوى هز الرؤوس أسفا على ذلك ، وغالبا ما خاب أملنا بدرجة لا تتصور ، فلم تذكر — فى معظم الأحوال — الأحداث الهامة التى كانت تثير نقاشا كبيرا بيننا ، والتى كنا نتمنى بحرارة أن نقرأ عليها تعليقات جدية فى الصحافة الغربية •

— « يبدو أنهم لا يعلمون شيئا عما يدور هنا » •

كانت هذه الجملة ، هى النغمة الوحيدة ، اذا تحدثنا حول هذا الموضوع • وبدلا من هذا تحدثت الجرائد فى برلين الغربية وألمانيا الغربية بالتفصيل عن نقص وأخطاء الادارات فى المنطقة الألمانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتى •

لم تشتد معارضة أحد من أصدقائى أو من معارفى ضد النظام عن طريق قراءة مثل هذه المقالات ، ولم توقظ فيهم أفكار المعارضة ، بل بالعكس : لقد كنا — بلا استثناء — ثائرين على المبالغة فى الاستهزاء بالعمال الذين يعملون الآن فى أجهزة الدولة ووقعوا مرة فى خطأ لغوى •

وهكذا أصابتنا دائما خيبة أمل مزدوجة : فالأحداث الكبيرة التى كانت تحركنا ، وكنا نتناقش فيها الليالى الطوال ، والتى سببت لنا « المغص السياسى » ، لم تمسها الصحافة الغربية اطلاقا ، فى حين أنها أسهبت فى الكلام عن نقص صغير ؛ لا يمكن تجنبه • وقد ظهر لنا هذا بالذات أنه موقف غير سليم ، وشعرنا فى مثل هذه الحالات ، أننا فى موقف الدفاع عن النظام ضد هذا الهجوم الموجه اليه •

كنا نريد أن نسمع أدلة جادة ، تساعدنا فى موقفنا المعارض لظواهر النظام ، وبدلا من هذا سمعنا ، الى أى مدى يرتفع مستوى معيشة العامل فى الغرب عن مستوى معيشة زميله فى الاتحاد السوفييتى وفى بلاد الكتلة الشرقية • وكان رد الفعل عندنا :

— « ولكنهم يكتشفون كل شىء أيضا ! كما لو كنا لم نعرف ذلك بأنفسنا ! من الطبيعى أن مستوى المعيشة فى بلاد غرب أوروبا أعلى من مستوى المعيشة فى بلاد الديمقراطية الشعبية • هذا واضح جدا — فالتاريخ يبين أن النظم الاجتماعية الآيلة للسقوط يكون مستوى معيشتها أعلى من النظم الاجتماعية الصاعدة » •

أما المقالات القليلة التى عالجت مشاكل البلاد الشرقية بأسلوب جدى ، فقد خرجت من المناقشة — فى معظم الحالات — بمدح نشاط الرأسمالية الخاصة وابتكاراتها ، أو الاشادة « بالعالم الغربى المسيحى » ، فلم تقنعنا هذه الحجج اطلاقا ، لأن شباب الجيل ، الذى تثقف سياسيا ، لا يفكر فى الاعتراف بالنظام الغربى ، عند معارضته المتزايدة للنظام « الستالينى » • حاول الجميع خلخلة الأيديولوجية « الستالينية » بواسطة دعاية النظام « الغربى » ، ولكنهم لم يستطيعوا التأثير علينا تأثيرا ذا قيمة • كنا أعداء « الستالينية » ، ولكننا لم نكن على استعداد

أن نستبدل به النظام الرأسمالى القديم ، فحمينا أنفسنا من دعاية تدعو الى تعويض الاقطاعيين ، ورد الشركات الى أصحابها السابقين ، واعادة الأحزاب السابقة ، وتطبيق النظام الغربى تطبيقا حرفيا فى البلاد الشرقية •

أثرت النغمة الساخرة — تأثيرا سيئا جدا — التى تحدثت بها الجرائد والاذاعات الغربية عن أشياء ، كانت فى نظرنا — نحن القياديين المعارضين — مقدسة ، فمثلا عندما توصف ثورة أكتوبر بأنها « انقلاب » ، أو يهاجم « لينين » شخصيا ويستهزأ به •

كذلك لم تستطع محاولة « نقد الماركسية » بأسلوب ملتو فى الصحافة والاذاعات أن تؤثر علينا نحن القياديين • فقد كان معظمها تفسيرات « للعامة » وكانت بدائية لدرجة أننا لم نأخذها مأخذ الجد •

ولم يكن من الأمور النادرة ، أن توصف الظروف فى الاتحاد السوفييتى بأنها « تطبيق للماركسية » ، ولكن « مغصنا السياسى » نابع أصلا من الشك المدعم بالأدلة فى أن التطور السياسى فى الاتحاد السوفييتى ، وفى المنطقة الألمانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتى يتفق مع مبادىء الماركسية : فالصحافة الغربية تقرر لنا الآن — وان كان ذلك باشارات أخرى — أن الدعوى الرسمية للحزب صحيحة •

غير أنه كان هناك بعض الاستثناءات ، وهى لا تزال فى ذاكرتى ، ولن أنساها أبدا • فعندما ذهبت للتجول فى برلين الغربية ، اكتشفت فى كشك لبيع الجرائد عند دار بلدية « شتيجلتس » كتيبا يحمل عنوانا موضوعيا : « النقابات وسياسة الاشتراكية فى الاتحاد السوفييتى » وكان اسم المؤلف : « سالومون شفارتس » مجهولا لى حتى ذلك الحين • وعند تصفحى له رأيت بيانا مفصلا عن « الجريدة الجديدة » ، وكانت الجريدة الأمريكية الرسمية فى ألمانيا حتى عام ١٩٥٥ م •

قلت لنفسى : سيكون هذا هراء كله ، فالأمريكيون هم الناشرون • وعندما رجعت الى سكنى فى المعهد العالى للحزب ، أحضرت ورقة وقلما ، لأدون كل التحريفات الموجودة فى الكتاب ، وكنت مقتنعا أن فيه الكثير من تزييف الحقائق •

بدأت فى القراءة ، فلم أجد هجوما ، بل أسلوبا موضوعيا مدعما بنصوص كثيرة ، وقوائم ، ومادة احصائية — بالضبط كما كان معروفا فى الأبحاث العلمية •

قارنت الأرقام والنصوص التى استشهد بها ، فوجدتها كلها صحيحة ، ولا زال قلمى موضوعا على استعداد للكتابة ، ولكن لم يكن هناك شىء يكتب ، وانتهيت من الكتيب بعد ساعتين ، ولم يكن عندى اعتراض — باستثناء علامتين أو ثلاث علامات استفهام — على ما أورده من احصائيات ، ونصوص نقلها من الصحافة السوفييتية • فقد كنت أعرف كل هذا من قبل ، ولكنى لم أقرأه قط فى أسلوب محكم كهذا الأسلوب ، ولم أر ترابطا بهذا الوضوح •

وبعد بضعة شهور تنقل كتيب آخر بين أيدى القياديين المعارضين ، وكان موضوعه مختارات من كتاب « كوستلر » :

Der Yogi und der Kommissar

نشرت الجريدة الجديدة هذا الكتيب بعنوان : « أساطير سوفييتية وحقائق » • تسمرت عينى على الكتاب بسرعة ، لأن الحديث فى الصفحة الأولى كان عن ثورة أكتوبر ؛ ولكنها لم تهاجم فى هذه المرة — كما هو الغالب فى الكتابات الغربية — الثورة ، أو يسخر منها ، ولهذا شد الكتاب اهتمامى حتى قرأته كله • اذ كان من عادتنا ألا نكمل قراءة المقالات والكتب التى يكون فيها اساءة الى ثورة أكتوبر — التى يعتبرها القياديون ، حتى المعارضون منهم ، حدثا كبيرا فى تاريخ الانسانية — أو تصفها بأنها « انقلاب » • ولكن كان اعجابى يزداد كلما قرأت فى كتيب « أساطير سوفييتية وحقائق » كلمات « كوستلر » عن الثورة الروسية ، وعصر بطولات الاستيلاء على السلطة بواسطة الشعب ، وسيادة العمال والفلاحين ، والموجات الثورية ، التى تفور وراء سفينة الثورة الروسية على القارة •

جمع الكثير مما كنت أعرفه حتى الآن جمعا مترابطا فى هذا الكتيب • كان الكتاب الذى وردت فيه « الستالينية » كمعنى مضاد للماركسية موضوعا أمامى ، وصور فيه النظام الحالى فى الاتحاد السوفييتى ، على أنه ليس تابعا لثورة أكتوبر ؛ بل دلل على أن النظام « الستالينى » خان انجازات ثورة أكتوبر ، وقلبها رأسا على عقب •

ثم جاء الكتاب الثالث من الغرب ، فبين أننا لا نقف وحدنا فيما نفكر فيه • كان الكتاب بعنوان : « الجانب الآخر للرأسمالية » ، وكتبه : « باوك سيرينج » وكتب تحت العنوان الأصلى : « محاولة لتوضيح اشتراكى جديد » •

اهتم الجزء الأكبر من الكتاب بالاتحاد السوفييتى ، فأثر فينا — على الرغم من أن بعض القياديين المعارضين لا يتفقون معه فى بعض النقاط — تأثيرا كبيرا ، لأنه كان فى اطار المراجع التى كانت لدينا آنذاك ، ولأنه كان المحاولة الأولى لتحليل الاتحاد السوفييتى ، محاولة الاجابة على هذا السؤال :

— لماذا قاد هذا التطور الى ذلك الطراز من الدولة ، وكيف اتسع نطاق التناقض مع النظرية الأصلية للماركسية الكلاسيكية !

كانت هناك أجهزة راديو فى كثير من حجرات الطلبة فى المعهد العالى للحزب ، وكذلك كان عندنا نحن المدرسين أجهزة استقبال جيدة • ولم يكن من النادر سماعنا للاذاعات الغربية ، ولم يكن الحال معها أحسن من الحال مع الجرائد •

كنت أجلس ذات مرة مع اثنين فى مسكنى نسمع اذاعة « رياس » . فكانت تأتى كلمة الحرية بعد كل كلمتين ، فقام أحدنا وأغلق الراديو ، ثم قال : « يتشدقون دائما بحريتهم ، فأولا : لا توجد حرية فى الغرب ، وثانيا : نحن نعلم أن ما فى الغرب ليس حرية » •

فوافقناه على هذا الرأى •

لم يكن هذا الرفيق من المتعصبين « للينينية » ، بل كان من القياديين المعارضين ؛ ولكن هذه المعارضة — وقد نسيت فى الغرب — كانت تتحرك فى عالم تصورنا ، داخل مصطلحاتنا ؛ وتهتم بمشاكلنا ، وليس لها أى علاقة بالميول الغربية ولا بمفاهيم الحرية الغربية •

كانت الحرية عندنا ادراك للضرورة التاريخية • ولما كنا الوحيدين الذين يوجد عندهم هذا الادراك على أساس نظرية علمية ، فقد كنا أحرارا ، بينما الناس فى الغرب — الذين ليس عندهم هذه النظرية العلمية ، ولهذا يقفون حيارى جاهلين أمام التطور التاريخى ، بل أصبحوا كرة اللعب فى هذا التطور — غير أحرار •

ولكن وجدت بعض الاستثناءات فى هذه البرامج الاذاعية : فقد كان الاستثناء الأول تمثيلية عن كتاب « كوستلر » : « كسوف الشمس » • لم أسمع شيئا عن هذا الكتاب ، حتى وقت سماع هذه التمثيلية ، ولكن لأنى كنت قد عرفت كتيبا من تأليف « كوستلر » فقد أسرعت بفتح الراديو • فتسمرت بجانبه بعد سماع الجمل الأولى • فهى تمثيلية عن بلشفى قديم محجوز فى سجن « وزارة الداخلية السوفييتية » ! وعندما

انتهت التمثيلية ، تجولت بضعة ساعات ، وكنت غارقا فى التفكير أثناء هذا التجول • ثم تأكدت فى اليوم التالى أن قياديين آخرين سمعوا هذه التمثيلية ، وتأثروا بها تأثرا عميقا •

واظبت — ابتداء من هذا اليوم — على سماع محطات الاذاعات الغربية ، ولكنى توقفت عن ذلك بعد أسبوع تقريبا ، اذ تبين ألا فائدة من ذلك ، فقد كانت هذه التمثيلية شاذة •

كنت جالسا مع مجموعة من القياديين فى منتصف يناير سنة ١٩٤٩ م ، وكان أحدهم ضابط شرطة ، فقال واحد منهم : ستذيع اذاعة « رياس » بعد نصف ساعة برنامجا بمناسبة موت « روزا لوكسيمبرج » •

— « برنامج أمريكى عن « روزا لوكسيمبرج » ؟

فتح ضابط الشرطة المذياع ، وهو مرتاب فى ذلك ، ولكن سرعان ما تلاشى ارتيابنا • فقد وصفت الثائرة الألمانية بانصاف ، بل حتى بكلمات تقدير واعجاب ، وفى نفس الوقت تليت مختارات من كتابها : « الثورة الروسية » ، وهو كتاب لم يذكر منه شىء فى أى صحيفة من صحف المنطقة الألمانية ، الواقعة تحت الاحتلال السوفييتى ، ولم يذكر أيضا ضمن المراجع فى أى مدرسة من مدارس الحزب ، حتى لم يذكر شىء فى الجزئين الكبيرين اللذين جمعت فيهما خطب ومؤلفات « روزا لوكسيمبرج » •

تنقل هذا الكتاب بين أيدى القياديين المعارضين فى حزب الاتحاد الاشتراكى الألمانى ، وحصلت عليه من قيادى ، أثناء لقائى معه ، فى مبنى رئاسة حزب الاتحاد الاشتراكى نفسه فى احدى المقاطعات • والآن •• سمعنا هذه المختارات منه فى اذاعة « رياس » :

« وبكبت الحياة السياسية فى جميع أرجاء الدولة ، يزداد استرخاء الحياة عند السوفييت باضطراد مستمر ، فبدون الانتخابات العامة ، وحرية الاجتماعات والصحافة المطلقة ، ونضال الآراء الحرة ، تموت الحياة فى كل مؤسسة عامة ، وتصبح حياة ظاهرية ، تكون البيروقراطية فيها هى العنصر الوحيد الذى يعمل ، فتجمد الحياة العامة تدريجيا ، ويحكم ويوجه فيها حفنة من زعماء الحزب المتوقدين نشاطا ، الذين تستولى عليهم مثالية لا حد لها ، وتقود حفنة من بينهم — يتمتعون

بذكاء خارق — جماهير العمال من وقت لآخر الى المؤتمرات للتصفيق لخطب الزعيم ، وللتصويت بالاجماع على القرارات التى تعرض عليهم ، وفى الحقيقة • هى مجموعة نفعيـــة ، وهو ديكتاتور لا شك فى هذا ، ولكن ليس ديكتاتور البروليتاريا ، بل ديكتاتور حفنة من السياسيين » •

بعد بضعة تعليقات جاءت نهاية البرنامج كالصاعقة :

« أين موقف « روزا لوكسيمبرج » الآن » ؟

ثم خيم الصمت على أرجاء الغرفة ، صمتنا ، وسأل كل واحد نفسه : « فيم يفكر الآخر » ؟

لم يكن الأمر بسيطا هذه المرة ، فلم أكن أعرف ثلاثة من الحاضرين ، ولهذا كنت حذرا : « من المؤكد ألا يكون موقفها مع الأمريكيين » •

فقال واحد من الذين لا أعرفهم : « ولكن ليس معنا أيضا » •

فأومأ الآخرون برؤوسهم علامة الموافقة على هذا الرأى — كذلك ضابط الشرطة •••

لم أنس هذه الكتب ، والبرامج القليلة فى الدعاية الغربية ، فبقيت فى ذاكرتى بحرفيتها لأنها طابقت ما كنا نبحث عنه : بحث طبيعة طبقات النظام ، بمفاهيم واصطلاحات فهمناها ، البحث فى مدى انحراف النظام « الستالينى » عن أسس الماركسية • كيف يمكن أن يكون الوضع فى الاتحاد السوفييتى ، لو تطور فى الاتجاه الماركسى !

ولمـــا لم تعالج الجرائد والاذاعات الغربية المسائل الهامة والحاسمة بالنسبة لنا ، فقد اضطررنا — نحن المجموعـــة المســـتقلة فى التفكير ، الاشتراكيين المتعرضين للاصابة « بالمغص السياسى » كثيرا — أن نجاهد بشق الأنفس ، وخطوة خطوة ، لحل مشاكلنا وحدنا ، دون أن نحصل من أى جهة — فى مناقشاتنا — على التحريض أو الاثـــارة ، التى قد تساعدنا فى جهادنا على مواجهة الاشتراكية •

* * *

ماذا حدث ليوغسلافيـــا

ظهرت أحداث فى فبراير سنة ١٩٤٨ م أثارتنا اثارة ، لم نعهد مثلها منذ تأسيس الحزب • بدأت أولا بوقائع غير ذات ضرر ، بدت لا أهمية لها ، ولم تكن مفهومة ، ولم تشرحها أى جهة •

كانت هناك مسألة المائة وخمسين عضوا من أعضاء منظمة « الشباب الألمانى الحر » ، اذ بعد زيارتى ليوغسلافيا ، سلمت تقريرا عنها لـ« هونيكر كورس » رئيس منظمة « الشباب الألمانى الحر » ، فبدأ الاتصال بينها وبين « الشبيبة الشعبية اليوغسلافية » وانطلقت — ابتداء من خريف عام ١٩٤٧ م — حملة دعائية تحت شعار : « ١٥٠ عضوا من أعضاء منظمة « الشباب الألمانى الحر » يسافرون الى يوغوسلافيا فى صيف عام ١٩٤٨ م » .

ونشرت جريدة المنظمة : « عالم الشباب » مقالات طويلة ، وجرى البحث فى اجتماعات القياديين عن البحث عن أحسن أعضاء « الشباب الألمانى الحر » للسفر الى يوغوسلافيا .

ثم توقفت الحملة فجأة ، بين عشية وضحاها ، فلا مقالات فى الجرائد ولا أى اشارة — كان الوضع كما لو لم توجد مثل هذه الحملة قط — فسألت أحد أعضاء اللجنة المركزية : « ماذا جرى للحملة الدعائية للمسافرين الى يوغوسلافيا » ؟

— « لا أدرى بالضبط ، فالوضع غريب جدا ، فقد قيل لنا فى اجتماعنا الأخير مع الأصدقاء السوفييت : « ينبغى وقف هذه الحملة ، فلن يستطيع الـ ١٥٠ عضوا من « الشباب الألمانى الحر » السفر فى صيف عام ١٩٤٨ الى يوغوسلافيا » . ولم يعطوا سببا لهذا ، فقد قالوا فقط : ينبغى أن نترك كل شىء يتسرب فى الرمل بهدوء » .

ثم سمعت بعد ذلك بوقت قصير ، أن الأربعة الكبار فى حزب الاتحاد الاشتراكى الألمانى سيزورون الدول الديمقراطية الشعبية فى الأسابيع القادمة ، وبعد ذلك ببضعة أيام أعلن نبأ الرحلة رسميا ، ولن يسافر أحد منهم الى يوغسلافيا .

وعدت اليوغسلافيين — عندما كنت عندهم فى صيف عام ١٩٤٧ — أن أعود فى الصيف القادم . كنا فى مايو سنة ١٩٤٨ م واقتربت أيام أجازتى ، فذهبت الى البعثة العسكرية اليوغوسلافية ، لأسألهم عن رحلتى .

— « تستطيع أن تسافر الى بلدنا فى كل وقت ، فأنت مدعو رسميا من اللجنة المركزية للشبيبة الشعبية ، وسنسر جدا بزيارتك » .

كان الرفقاء اليوغوسلافيين مؤدبين جدا ، ولكن عندما لمحت بحذر الى مسألة الـ ١٥٠ عضوا من « الشباب الألمـانى الحر » تهربوا من الاجابة قائلين :

ـ « لا نستطيع أن نتحدث عن هذا بالضبط ، فمن ناحيتنا ، لا زالت الدعوة قائمة » .

ولم يقولوا شيئا أكثر من هذا ، ولكن كان فيه الكفاية .

علمت الآن : لا زال اليوغوسلافيين موافقين على سفر الـ ١٥٠ عضوا من « الشباب الألمـانى الحر » ، ومنظمة « الشباب الألمـانى الحر » موافقة أيضا ، فلم يبق الا احتمال واحد : كان الممثلون السوفييت ضد هذا السفر .

ولكن لمـاذا ؟ ما هو السبب ؟

ذهبت فى صباح ٢٩ يونيو سنة ١٩٤٨ ـ كما هى عادتى فى كل صباح ـ الى قسم توزيع الجرائد على المدرسين ورؤساء الأقسام ، واضطررت الى الانتظار لحظة ، لأن الأستاذ « فيكتور شتيرن » كان يأخذ جريدته فى هذه اللحظة . كانت جريدة « تليغراف » موضوعة فوق الجرائد ، فظهر عنوان صفحتها الأولى بالخط العريض : « ستالين يقطع العلاقات مع تيتو ـ تيتو يتهم بالتروتسكية » .

ـ « وصل الهراء الى هذا الحد ! هذا اللغو الذى يكتبونه دائما ! ما معنى هذا ؟ تيتو يتهم « بالتروتسكية » ! جنون ! لقد طرد تيتو « التروتسكيين » من الحزب » . ثم طوى « فيكتور شتيرن » جريدته غاضبا ، وذهب .

ألقيت نظرة سريعة على العناوين المهمة فى الصحافة الغربية ، فعلمت :

لم تخطىء « التليغراف » ، فقد كان تفسيرا للوقائع الغريبة التى حدثت فى الأسابيع الأخيرة ، ولم ينشر شىء عن هذا الموضوع فى الجرائد الشرقية فى هذا الصباح .

أسرعت الى حجرتى ، فقرأت بعناية كل الأخبار التى نشرت فى الجرائد الغربية . كانت مختصرة جدا ، لدرجة أنى لم أستطع الحصول على صورة دقيقة للوضع ، غير أنه كان هناك شىء واضح : نشر قرار من مكتب الاستعلامات الشيوعى ، يتهم يوغوسلافيا بأخطاء وانحرافات سياسية .

ومن هذه اللحظة لزمت الجلوس بجانب الراديو ، فلم أتركه لحظة • وبعد ساعتين وصلت صديقتى « الزى » ، وهى من « مجموعتنا الخاصة » ، وتعمل فى مبنى سكرتارية اللجنة المركزية • جاءت تزورنى فى « كلاين — ماخنوف » ومن الطبيعى أنها سمعت كل شىء ، ومرت على أصدقاء فى هيئات تحرير جرائد مختلفة : « لم يأت النص الحرفى بعد ، ولكن لابد أن يظهر فى جريدتنا غدا ، ويسيطر قلق كبير فى كل مكان ، ولكن لم يعرف شىء بالتحديد حتى الآن » •

جلسنا حتى ساعة متأخرة من الليل بجانب الراديو ، فلم يتضح شىء بعد •

وفى صباح اليوم التالى — وهو يوم ٣٠ يونيو سنة ١٩٤٨ م — حصلت أخيرا على نص قرار مكتب الاستعلامات الشيوعى ، فقرأت باهتمام الاتهامات الموجهة ضد الشيوعيين اليوغسلافيين ، فكان غضبى يزداد كل لحظة من بدائية هذه الاتهامات التى ليس لها أساس اطلاقا •

لم يكد يمضى على زيارتى ليوغسلافيا عشرة شهور الآن ، ولم أهتم منذ ذلك التاريخ فقط — بل قبل ذلك — بقراءة كل ما ينشر عن يوغسلافيا بصفة مستمرة ومن هنا لم يكن من الصعب ادراك أن هذه الاتهامات كانت خاطئة •

اتهم الشيوعيون اليوغسلافيون بالقومية الوطنية ، فقد شعرت — سواء كان ذلك فى الأحاديث مع الشيوعيين اليوغسلافيين ، أو أيضا فيما ينشرونه — بالروح العالميـــة ، التى كنت أبحث عنها فى الاتحاد السوفييتى ، فلم أجدها •

وقرأت فى القرار :

« حماية العناصر الرأسمالية فى انقرية » •

فى حين أنى علمت أن الشيوعيين اليوغسلافيين لم يطبقوا قانون الاصلاح الزراعى بطريقة أكثر جدية من كل البلاد الأخرى فحسب ، بل كانت الدولة الأولى التى كونت جمعيات ديمقراطية شعبية لعمـال الزراعة •

« موقف عدائى تجاه الاتحاد السوفييتى » •

فكرت عند ذلك : كيف تكتب النشرات اليوغسلافية عن الاتحـاد السوفييتى ، وكيف يتخذ اليوغسلافيون الاتحاد السوفييتى نموذجا

لهم ، وكيف يضعون انجازاتهم الضخمة — بتواضع — فى مركز يلى وضع الاتحاد السوفييتى !

لم أستطع سوى الضحك على قولهم :

« النظام « البيروقراطى العسكرى » فى الحزب اليوغسلافى » •

يدافع الحزب السوفييتى اليوم عن ديمقراطية الحزب ، وهو الذى يتحكم فيه النظام البيروقراطى العسكرى ، والذى لم يعقد مؤتمرا حزبيا — مناقضا بذلك دستوره الخاص — منذ عام ١٩٣٩م ، أى منذ تسعة أعوام •

ثم عاد الهجوم ضد السياسة الزراعية اليوغسلافية ، وكانت هذه المرة بسبب :

« الانحراف المزعوم عن اليسار » •

فوصفت بأنها « لا تحتمل » ، بعد ما اتهموا الشيوعيين اليوغسلافيين قبل ذلك ببضعة فقرات بـ « النفعيين » •

قلت لنفسى : من يمكن أن يأخذ هذه الحجج مأخذ الجد ، أو يصدقها — ولكنى أخذتها مأخذ الجد فى اللحظة التالية ؛ غير أن ذلك ليس بسبب ما جاء فيها من أدلة ، بل بسبب التهديد والوعيد الذى ورد فى نهايتها :

« تنحصر واجبات القوى السليمة فى الحزب الشيوعى اليوغسلافى فى الاعتراف بأخطائها بصراحة وصدق ••• أو اذا أثبتت الزعامة الحالية للحزب الشيوعى اليوغسلافى فى أنها غير كفء لذلك ، فيجب أن تنحى ، ويعين مكانها زعامة جديدة عالمية للحزب الشيوعى اليوغسلافى » •

كان هذا واضحا — بل بالغ الوضوح جدا • فالدولة الوحيدة فى أوروبا التى قامت بثورة ناجحة فى العشرين سنة الأخيرة ، ويتزعمها حزب شيوعى ، ينبغى أن ترغم الآن على الطاعة • وضح لى هذا بسرعة ، فقد عرفت السياسة السوفييتية معرفة كافية — أن الأمر لا يتعلق بالاتهامات الواردة فى القرار ، بل يتعلق بأن الشيوعيين اليوغسلافيين سلكوا طريقا مستقلا فى سياستهم الخاصة •

وقفت من أول لحظة — عن اقتناع تام — فى جانب الشيوعيين اليوغسلافيين المعتدى عليهم ، وضد أولئك الذين أصدروا ودافعوا عن قرار مكتب الاستعلامات الشيوعى •

لم أكن الوحيد ، فلحسن الحظ ، لم يكن عندى عمل فى ذلك اليوم

الا فى فترة الصباح ، ثم سافرت الى برلين لزيارة أصدقائى • تحدثوا كلهم عن قرار مكتب الاستعلامات الشيوعى ، ولم يذكر أحد حصار برلين — الا نادرا — ذلك الحصار الذى كان قد بدأ فى ذلك اليوم ، على الرغم من أن كل الأحاديث كانت فى برلين •

دارت كل الأحاديث حول هذه المشكلة : ماذا سيفعل اليوغسلافيون ؟ هل سيخضعون ، فيعترفون بأخطـاء لم يرتكبوها ، استسلاما لهذا التهديد ؟ أو سيكون عندهم الشجاعة لمعارضة هذا القرار ؟ •

جلس كثيرون حول الراديو بالتناوب : حتى لا يفوتهم شىء : فقد كانوا ينتظرون رد اليوغسلافيين •

— « رفضوا بأدب » •

كانت هذه الجملة التى تناقلتها مجموعتنا همسا • رجعت صديقتى « الزى » فى المساء من المنزل المركزى للوحدة :

— « ان قصر الزجاج » مثل خلية النحل الآن ، فكلهم مضطربون اضطرابا فظيعا • بعضهم متعاطف مع اليوغسلافيين • ليتهم يرفضون ! » •

ثم جلسنا مرة أخـرى حول الراديو ، مضت نصف ساعة ••• ساعة ••• وأخيرا سمعنا صوت مذيع الأخبار فى لندن :

« رفضت اللجنة المركزية للحزب الشيوعى اليوغسلافى اتهامات مكتب الاستعلامات الشيوعى ، ووصفتها بأنها غير صحيحة » •

لم تكهربنى أى أنباء قط مثل هذا لنبأ • تعلن هيئة الاذاعـة البريطانية :

« اجتمعت اللجنة المركزية للحزب الشيوعى اليوغسلافى ، ونقضت بنود الاتهام بندا ، بندا ، وأعلنت ، أنه لا يمكن الاعتراف بالأخطاء التى لم ترتكبها يوغسلافيا » •

كدنا نطير من الفرحة • أخيرا •• وأخيرا وجد الحزب الشجاعة لمعارضة زعامة ستالين ! ولكن سرعان ما ظهر قلقنا أيضا •

— « هل سيستطيع اليوغسلافيين الصمود ؟ من المؤكد أنه لن يكون اصرار على القرار » •

— « ربما تنحاز بلغاريا ، أو بلد ديمقراطى شعبى آخر الى جانب يوغسلافيا ، وربما أيضا بولنـدا ، وربما يحدث شقاق داخلى فى أحزاب الدول الديمقراطية الشعبية » •

تناقشنا حتى ساعة متأخرة من الليل ، وحاولنا أن نسمع محطة بلغراد ، ولكن لم ننجح فى العثور عليها هذا المساء • ثم علمنا فى اليوم التالى أننا لم نكن الوحيدين ، الذين جلسوا حول الراديو مضطربين ، كى يحصلوا على توضيح لهذه الحقيقة الرائعة ، وهى أن حزبا شيوعيا رفض قرار مكتب الاستعلامات الشيوعى ، وبالتالى عارض ستالين • ولكن لم يزل شىء غائبا عنا : نص الرد اليوغسلافى على مكتب الاستعلامات الشيوعى • توقع المتفائلون أن تنشر جرائد حزب الاتحاد الاشتراكى الألمانى الرد اليوغسلافى — وخاب ظنهم • اشترينا كل الجرائد التى كانت تصدر آنذاك فى برلين الغربية ، وسمعنا كل محطات الاذاعات الغربية ، وللأسف كانت كلها تذيع ملخصا للرد • صببنا اللعنات : « لو يذيعوا مرة النص الحرفى » ! •

وأخيرا حصلنا على الرد بعد ثلاثة أيام ، فقد طبع فى نشرة لوكالة « تانيوج » وكانت حتى ذلك الحين احدى النشرات الصحفية الكثيرة التى كانت ملقاة فى مكاتب هيئة تحرير الجرائد • وسرعان ما أصبحت نشرة وكالة الأنباء اليوغسلافية • أهم وأكثر النشرات — التى انتشرت آنذاك فى حزب الاتحاد الاشتراكى الألمانى — اثارة •

الآن •• نقرأ الحقيقة واضحة ، نقرأ ما لم نعتبر حدوثه قبل ذلك فى حدود الممكن : ترفض زعامة الحزب الشيوعى اليوغسلافى الاعتراف بقرار مكتب الاستعلامات الشيوعى ، وتعلن أنه خطأ • فقد بنى النقد فى هذا القرار على ادعاءات غير دقيقة ، ولا أساس لها اطلاقا ، فهو محاولة للاساءة الى سمعة الحزب الشيوعى اليوغسلافى فى الداخل والخارج ، عن طريق اشاعة الاضطراب فى الداخل ، وكذلك فى الحركة العمالية •

نقدت كل ادعاءات قرار مكتب الاستعلامات الشيوعى بطائفة كبيرة من الحقائق الدامغة ، كما صيغ النقد بأسلوب واقعى هادىء •

ومما أثار اهتمامى بنوع خاص الرد على الاتهام المزعوم برقابة الخبراء المدنيين والعسكريين السوفييت فى يوغسلافيا ، فلم يرفض اليوغسلافيون الاتهام فقط ، بل أعلنوا من جانبهم أن المخابرات السوفييتية حاولت أن تستخدم عملاء لها فى الحزب الشيوعى المؤاخى لهم ، وقد أشار عدد كبير من أعضاء الحزب اليوغسلافى فى بياناتهم

لمنظمات الحزب الى أن منظمة هيئة الاستعلامات السوفييتية ، حاولت استخدامهم كعملاء لها • وترى اللجنة المركزيـــة للحزب الشـــيوعى اليوغسلافى أن هذا التصرف ازاء بلد ، يكون الشيوعيون هم الحـــزب الحاكم فيه غير مسموح به ، فهو يتعارض مع الاشتراكية ، ويؤدى الى افساد شعب جمهورية يوغسلافيا الاتحادية ، والى اضعاف وموت الحزب والدولة •

« ينبغى أن تقول زعامة حزب الاتحاد الاشتراكى الألمـــانى ذلك أيضا » — كان هذا رد الفعل عند أحد القياديين فى حزب الاتحاد الاشتراكى الألمـــانى ، الذى وضع — مثلى — خطا عريضا تحت هذه الجملة •

وضح اليوغسلافيين فى النهايـــة أنهم ليســـوا على اســـتعداد للاعتراف بالاتهامات التى وجهها اليهم مكتب الاستعلامات الشيوعى ، ولكن فى نفس الوقت — وكانت هذه نقطة مهمة جدا بالنسبة لنا — سيستمر العمل فى بناء الاشتراكية بنشاط أكبر من ذى قبل •

ان من الصعب على الانسان فى الغرب أن يتصور ، مدى تأثرنا بهذه الجمل ، التى وردت فى الرد اليوغسلافى ، التى أدانت تبعية العبيد ، والتى رفض بها الاعتراف بالخطأ الذى لم يرتكب — وهذا يمس نظام النقد والنقد الذاتى بأكمله ، وبالتالى النظام الستالينى عموما • بدت لى كومضة ثورية ؛ عندما قرأت هذه الكلمات : « لا ترى اللجنة المركزية ، والحزب الشيوعى اليوغسلافى ، أن وحدة الجبهة الشيوعية قد تصدعت بواسطة رفض المناقشة حول أخطاء لم ترتكبها ، اذ لم تقم وحدة هذه الجبهة على الاعتراف بأخطاء ووشايات مفتعلة ، و « مفبركة » ، بل على واقعية عما اذا كانت سياسة الحزب عالية حقيقة أم لا • غير أنه لا يمكن الازورار فى صمت عن الأمر الواقـــع : وهو أن مكتب الاســـتعـــلامات الشيوعى قد نقض المبادىء التى أسس عليـــها ، والتى أوصت بحرية كل حزب فى قبول قراراته • لم يجبر مكتب الاستعلامات زعامة الحزب الشيوعى اليوغسلافى على الاعتر ف بأخطاء لم ترتكبها فقط ، بل حث أعضاء الحزب الشيوعى اليوغسلافى على التمرد فى الحزب ، وعلى تصدع وحدة الحزب ، لا يمكن للجنة المركزية للحزب الشيوعى اليوغسلافى أن توافق على أن تناقش سياستها على أساس علاقات مبتدعة ، غير أخوية ، وبدون ثقة متبادلة •

كان لرد الشيوعيين اليوغوسلافيين دويا مثل دوى القنابل ، فحيثما توجهت وجدت الكل يتناقش فى هذا الموضوع • وكثير منهم كان يخرج نشرة أنباء وكالة « تانيوج » من جيبه ويقول لزميله هامسا : « نشرة أنباء وكالة « تانيوج » ، ولكن تعيدها لى غدا ، لأن لزملاء آخرين يريدون قراءتها » • وانتقلت الأوراق من يد الى أخرى •

لم يكن هذا حتى الآن عملا غير شرعى ، اذ لم يتخذ حزب الاتحاد الاشتراكى الألمانى موقفا معينا ازاء هذه الأحداث حتى الآن ، وكان أمل البعض فى أن يقف على الحياد ، ولكن سرعان ما خاب أملهم •

* * *

حزب الاتحاد الاشتراكى الألمانى يتدخل

نشرت كل جرائد حزب الاتحاد الاشتراكى الألمانى فى ٤ يوليو سنة ١٩٤٨ م على صفحاتها الأولى ما أطلق عليه : « بيان حول المسألة اليوغوسلافية » •

أيد الاتحاد الاشتراكى قرار مكتب الاستعلامات الشيوعى ، على الرغم من أنه ليس عضوا فيه :

« اتخذت السكرتارية المركزية للاتحاد الاشتراكى الألمانى موقفا من بيان مكتب استعلامات الأحزاب الشيوعية ، فاعترفت بأن ما جاء فيه من ادانة سياسة اللجنة المركزية للحزب الشيوعى اليوغوسلافى صحيح » •

وضح سبب الخلاف الحقيقى فى هذا القرار أكثر من وضوحه فى بيان مكتب الاستعلامات الشيوعى :

« تظهر أخطاء الحزب الشيوعى اليوغوسلافى ، هدف الاتجاه ! عندما يتخلى حزب عمالى عن الأسس المسلم بها فى العلاقة الأخوية مع الاتحاد السوفييتى الاشتراكى ومع حزب « لينين » و « ستالين » • ومما هو كامل الوضوح أن أخطاء الحزب الشيوعى اليوغوسلافى تظهر لحزبنا أن تأييد الاتحاد السوفييتى اليوم تأييدا كاملا هو الموقف الممكن الوحيد لكل الأحزاب الاشتراكية ••• » •

تصببت عرقا ، فقد عرفت — بسبب تعودى على اللغة الحزبية — مغزى هذا الكلام : زيادة تبعية حزب الاتحاد الاشتراكى الألمانى للاتحاد السوفييتى ، وللسياسة السوفييتية ، ونهاية دعوى اتخاذ طريق ألمانى مستقل الى الاشتراكية •

ثم جاءت كلمة الختام :

« وأخيرا .. تلوم السكرتارية المركزية للاتحاد الاشتراكى الألمانى ما قام به بعض الشيوعيين اليوغوسلافيين من توزيع منشورات فى برلين موجهة ضد البيان . وترى السكرتارية المركزية أن هذا عمل يتنافى مع آداب الحركة العمالية العالمية » .

كان هذا قمة عدم الوفاء ، اذ لم يتنازل حزب الاتحاد الاشتراكى فقط عن القيام بواجبه الذى يحتم عليه فى حالة الخلاف بين حزبين شيوعيين أن ينشر آراء كلا الجانبين ، بل احتج أيضا عندما فعل ممثلو الشيوعيين اليوغوسلافيين — من تلقاء أنفسهم — كل ما فى وسعهم ، لكى يبينوا موقف حزبهم .

أصبحت نشرات وكالة أنباء « تانيوج » الآن « عدائية » طبقا للموقف الرسمى لحزب الاتحاد الاشتراكى الألمانى ، ولكن كثيرا من قياديى الحزب اعتبروا ذلك تصرفا غير لائق : هل تعتبر منشورات حزب شيوعى « عدائية للحزب » ؟ وظهرت منشورات أخرى من وكالة أنباء « تانيوج » ، بينت بالتفصيل جوانب النزاع ، وأرسلت الينا باسم مستعار وفى ظروف مختلفة للتمويه . قال أحد قياديى الحزب تعليقا على هذه الطريقة بنغمة المسرور : « الخبرة خبرة ، فاليوغوسلافيون يفهمون هذه الأشياء » .

لم يكن الحصول على منشورات « تانيوج » من الأمور العسيرة ، فقد ظهرت كل المقالات اليوغوسلافية ، فورا باللغة الألمانية ، ووصلت الى قياديى حزب الاتحاد الاشتراكى الألمانى عبر قنوات متعددة ...

كان الوضع خطيرا لدرجة أنه دفع زعامة حزب الاتحاد الاشتراكى الألمانى الى اتخاذ قرار « لتقوية أنظمة الحزب ، وتطهيره من العناصر الفاسدة والمعادية » .

وطولب فى هذا القرار باتخاذ اجراءات طرد سريع ضد الفئتين التاليتين من فئات الأعضاء :

١ — الأعضاء الذين يجاهرون بموقف عدائى للاتحاد السوفييتى .

٢ — الأعضاء الذين يقفون موقفا عدائيا للحزب .

كان كل واحد يعلم طبعا أن المقصود بهذا فى المقام الأول ، أولئك الذين — كما كان يطلق عليهم فى الحزب آنذاك — « وضعوا أنفسهم

وضعا منحرفا فى المسألة اليوغوسلافية كان كثير من القياديين — الذين تحدثت معهم فى تلك الأيام — فى جانب اليوغوسلافيين — وان التزم بعضهم جانب الحذر التام — ولكن كان من رأيهم — على أقل تقدير — أنه لم يكن ينبغى أن يقف الاتحاد الاشتراكى كلية بجانب مكتب الاستعلامات الشيوعى • حتى المؤيدين لهذا المكتب ، لم يذهبوا الى حد تأييد كل ادعاءات القرار •

كان من الأشياء المهمة جدا ، حديث مع « باول فانديل » الذى كان آنذاك رئيس الادارة المركزية للتثقيف الشعبى ، ومنذ عام ١٩٥٣ م سكرتير اللجنة المركزية لحزب الاتحاد الاشتراكى الألمانى •

عرفت « فانديل » باسم « كلاسنر » من أيام مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ، فقررت ألا أبوح برأيى •

اعتقد أنى من المؤيدين لحزب الاتحاد الاشتراكى الألمانى ، فى موقفه من المسألة اليوغوسلافية فبدأ يشكو لى من تأثير نشرة « تانيوج » :

— « تصور يا « فولف جانج » •• شىء غير معقول اطلاقا •• ذهبت أمس الى مكتبى ، وناديت على سكرتيرتى مرتين بصوت عال ، دون أن تتحرك اطلاقا ، ماذا كانت تعمل ! كانت تقرأ نشرة « تانيوج » ، هى رفيقة ممتازة ، كانت توصل لى — حتى ذلك الحين — كل النشرات المعادية للحزب » •

كان من الصعب على اخفاء سرورى ، وقلت لنفسى : اذن ، لا تقرأ نشرة « تانيوج » فى جهاز الحزب فقط ، بل فى الادارة المركزية أيضا •

أنا موجود الآن فى حجرة مدرسى السابق فى مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ، علمنى لأصبح قياديا • كيف يمكنه الآن أن يشرح لى هذه المسألة برمتها ؟

— « لو تحدثنا عن هذا الموضوع بجدية ، يا « فولف جانج » ، فالمنشور فى القرار هو للجماهير طبعا • فلا ينبغى أن تؤخذ الأشياء حرفيا ، بل ادراكها بالحاسة السياسية » •

حاول « باول فانديل » تبرير قرار مكتب الاستعلامات الشيوعى على مستوى عال ، لأنه كان يعتقد أنه لا يمكن أن يوضع مثل هذا القرار أمام قيادى ، تلقى قسطا كبيرا من الثقافة السياسية •

— « كنت مهتما بمسائل البلقان سنين عديدة أيام عملى السابق فى سكرتارية البلقان يجب أن يتصور المرء هذه الأشياء على نحو آخر •• »

ثم بدأ بالقرن التاسع عشر ، بالصفات الخاصة للعلاقات الطبقية هناك ، ودور المثقفين الثوريين الوطنيين ، الذين هم حقيقة ثوريون ، ولكنهم لم يكونوا قط ماركسيين حقيقيين ، غير أن لهم نفوذا فى الحزب • وتحدث عن « التروتسكيين » الذين طردوا من الحزب اليوغوسلافى ، ولكن أفكارهم لم تختف اطلاقا ، وعن زعماء الحزب اليوغوسلافى ، الذين هم مناضلون مثاليون ، ولكنهم — لأنهم ظلوا طول حياتهم تقريبا مقيمين فى بلدهم — لا يملكون القدرة على « التثقيف الجاد » ومن كل هذه الأسباب مجتمعة — تحدث « باول فانديل » عن هذه الأسباب أكثر من نصف ساعة — نتجت الحالة التى أدت الى الوضع الراهن اليوم • كانت محاضرة قيمة ، ولكنها لم تقنعنى •

ربما يستطيع « أنتون آكارمان » توضيح هذه المشكلة لى ؟ فأنا أعتبره أذكى عقلية فى زعامة الحزب ، وهو لوحيد ، الذى يوصف بحق بأنه عبقرى الحزب — وان كنت أعلم أنه سيدافع أمامى عن القرار •

كنا نجلس فى « فيللته » ، فى حجرة أبدع الذوق الفنى فى تأثيثها •

— « مرحبا •• نأخذ أولا كأسا من « الكونياك » ! يبدو على وجهك أن عندك « مغص سياسى » •

— « نعم •• عندى •• أقصد ••• » •

— « لست فى حاجة الى الاستمرار فى الكلام ، فأنا أعرف السبب موضوع يوغوسلافيا » !

لم يترك لى الفرصة لأقول شيئا ، وبدا لى ، كما لو كان يخشى أن أقيم الأدلة على صحة موقف يوغسلافيا ، تجعل الدفاع عن موقفه أشد صعوبة •

انتصب واقفا ، وذرع الحجرة جيئة وذهابا • لم يحاول — مثل « فانديل » — سرد أسس تاريخية أو اجتماعية أو غير ذلك •

— « يا « فولف جانج » •• على الرغم من صغر سنك ، فلديك خبرة واسعة فى الحزب • لابد للمرء أن يتعود على بعض الأشياء ، اذا كنت مسافرا على سفينة ، قادها قبطانها بسلام — حتى الآن — بين الصخور والمخاطر ، ثم انحرف بها فجأة الى اتجاه آخر ، لا تعرف له سببا — أو ظهر لك أنه خاطىء — فيجب عليك فى هذه الحالة أن تثق فى القبطان ، لأنه يعرف بالتأكيد ، لماذا فعل هذا ! ويجب على المرء أن يظن أنه ربما كان عنده رؤية أحسن ، لأبعاد الموقف ، ويرى أن هذا التغيير فى

الاتجاه لا يضر ، بل يحميه — حتى ولو لم يتضح هذا التغيير بعد » .

لم ينظر الى أثناء حديثه ، بل كان نظره موجها الى أرضية الحجرة .

عندما أفكر اليوم فى هذا الحديث ، يبدو لى — فى كثير من النواحى — الصراع الداخلى فى « الأيديولوجية الستالينية » ، فهى أيديولوجية تدعى أنها تطبق النظرية الجدلية منطقيا ، وهى فى حقيقة الأمر تستخدمها كوسيلة لتبرير لاحق ، وهى أيديولوجية ينتسب اليها كل توجيه وثقافة ، من ناحية المبدأ الأساسى ، ويلتزم بتعريفاتها المحددة بدقة فى تدعيم كل الاجراءات تدعيما منطقيا ، لكى يدخل فجأة ، وبدون مقدمات — وبالذات عند مثل هذا الانحراف فى السياسة السوفييتية ، التى لم تعد قائمة على أساس منطقى — البواعث اللامعقولة الى الاعتقاد الأعمى فى « عصمة القبطان » .

* * *

الحملة ضد أيديولوجيـــة تيتو

واصلت القاء محاضراتى فى المعهد العالى للحزب بطريق روتينى فقط ، دون أن يكون عندى احساس قلبى نحو هذا العمل . وكانت أفكارى تتأرجح دائما نحو يوغوسلافيا ، نحو ذلك الحزب الذى حقق الآن ، ما كنت أحلم به فى معظم الأوقات : اقامة المجتمع الاشتراكى المستقل عن موسكو . كانت أفكارى وميولى وآمالى ، وتمنياتى مع الشيوعيين اليوغوسلافيين ، الذين هاجمهم مكتب الاستعلامات الشيوعى ، وافترى عليهم .

زرت بعد يومين معارفى فى البعثة العسكرية اليوغوسلافية ، الذين تحدثت معهم قبل عام عن رحلتى الى يوغوسلافيا . قررت الانتظار حتى حلول الظلام ، والذهاب سيرا على الأقدام .

كلما اقتربت من شارع « فايـــل » — حيث توجد « الفيللات » التى يسكن فيها اليوغوسلافيون — كلما ازدادت حركة تلفتى ورائى ، لأرى ما اذا كان أحد يتبعنى .

وفجأة خطرت ببالى أفكار جديدة :

انسان تربى فى الاتحاد السوفييتى ، وأعد هناك ليكون قياديـــا فى الحزب ، وهو مدرس فى المعهد العالى لحزب الاتحاد الاشتراكى الألمـــانى ، يريد أن يزور شيوعيا يوغوسلافيا ، كان محاربا فى جيش

العصابات ، فيتحتم عليه أن يقوم بهذه الزيارة تحت جنح الظلام • كان يمكن أن تفزعنى هذه الأفكار ، لو خطرت ببالى قبل بضعة أسابيع ، ولكنها الآن تحزننى فقط ، فقد هدأ شعورى الداخلى — أصبح واضحا لى تماما الآن ، معنى كونى قياديا فى حزب الاتحاد الاشتراكى الألمانى •

يسكن « باول ماركجراف » على الجانب الأيسر من شارع « فايل » وكان رئيس الشرطة فى برلين حتى عام ١٩٤٩ م • جاء من موسكو بالطائرة فى نفس اليوم الذى جئت فيه • نظرت الى الحارس الواقف أمام منزله ، عندما مررت به ، فاعترتنى احساسات مختلفة •

بدا التعب الشديد على صديقى اليوغوسلافى ، فقد أنهك فى هذين الأسبوعين ، منذ اذاعة قرار مكتب الاستعلامات الشيوعى • عندما علم أنى من أولئك القياديين ، الذين لم يشكوا فقط فى صحة قرار مكتب الاستعلامات الشيوعى ، بل يرفضونه كلية ، مد يده الى وسلم بحرارة ، ثم تعانقنا •

— « سيكون عندنا بعد بضعة أسابيع — فى ٢٩ نوفمبر — احتفال بذكرى ثورتنا ، وسنقيم حفلة فى السفارة بهذه المناسبة ، ويسرنى جدا لو شرفتنا بحضور هذه الحفلة » قبلت الدعوة •

وعندما عدت فى نهاية الأسبوع التالى من المعهد العالى للحزب الى سكنى فى « بانكوف » كانت هناك مفاجأة سارة لى ، وصل طرد من سويسرا ، ففتحته بسرعة متلهفا على معرفة ما بداخله ، فوجدت فيه مجموعة من الكتيبات باللغة الألمانية : خطب « تيتو » و « كارديلى » ومواد أخرى عن المؤتمر الخامس للحزب الشيوعى اليوغوسلافى ، الذى عقد فى بلغراد بعد أسابيع قليلة من الانفصال عن موسكو •

لا شىء كان يمكن أن يدخل السرور على نفسى فى هذا اليوم مثل ما سرنى هذا الطرد • وبعد بضعة دقائق كنت غارقا فى قراءة هذه الكتيبات •

انتفضت فجأة فزعا ، عندما دق طارق على الباب ، وكانت هذه أول مرة يصيبنى مثل هذا الفزع فى برلين الشرقية عند سماعى طرقا على الباب •

كان فزعى غير ضرورى ، فقد وقف أمام الباب زائر جاء على غير ميعاد •

وعندما عدت الى سكنى فى المعهد العالى للحزب ، أحكمت الاغلاق

على هذه الكتيبات ، وكل النشرات التى وصلتنى حتى الآن من وكالة « تانيوج » ولأول مرة أخفى شيئا — وأنا مدرك لهذا العمل — بعيدا عن أعين رقباء الحزب • لم أشعر بأى ذنب اطلاقا وأنا أقوم بهذا العمل ، لأنى عرفت أن الحق فى جانب الشيوعيين اليوغوسلافيين — وليس فى جانب مكتب الاستعلامات الشيوعى • ولا يمكن أن تكون هناك أى محاولة أخرى للتبرير فى هذه المسألة ، فقد وصلت الى قرار حاسم •

لم يكن بيان اللجنة العليا للحزب فى ٣ يوليو ، وقرار موقفه بالتفصيل من النزاع الذى صدر فى ٢٩ يوليو هما النهاية : بل كانا بداية الحملة ضد الشيوعيين اليوغوسلافيين ، وضد « أيديولوجية تيتو » •

عقدت ندوة خاصة للجنة العليا للحزب فى سبتمبر سنة ١٩٤٨ لمناقشة هذه المسألة • كانت هى الندوة الثالثة عشر ، وكان الهدف الوحيد لعقدها هو ادانة الشيوعيين اليوغوسلافيين • أيد قرار مكتب الاستعلامات الشيوعى من جديد — وللمرة الثانية — فى بيان رسمى ذليل ، وأعلن الانحياز التام الى الاتحاد السوفييتى •

أعلن بعد انتهاء الندوة بيان طويل تحت عنوان ضخم : « الدلالة النظرية والعملية لقرار مكتب الاستعلامات الشيوعى عن الوضع فى الحزب الشيوعى اليوغوسلافى ، ونظرية حزب الاتحاد الاشتراكى الألمانى » •

شكرت اللجنة العليا لحزب الاتحاد الاشتراكى الألمانى بطريقة مؤسفة « المكتب السياسى للحزب الشيوعى السوفييتى ، وخاصة الرفيق « ستالين » لأنهم « كشفوا فى الوقت المناسب أخطاء الحزب الشيوعى اليوغوسلافى » • ووصف القرار البدائى المليء بالمفتريات ، الذى أصدره مكتب الاستعلامات الشيوعى ، بأنه « خدمة رائعة للنظرية الماركسية » •

ولوحظ أن مدلول وثائق مكتب الاستعلامات الشيوعى لم يدافع عنها سوى قيادات الحزب فى الاتحاد الاشتراكى •

انتقد البيان « ظواهر التقهقر أمام الأيديولوجية المعادية » — والمقصود من ذلك بيان الشيوعيين اليوغوسلافيين — ، ويرى أنه « لم يفعل ما فيه الكفاية » لتبصير أعضاء الحزب بتجارب الكفاح من أجل الاشتراكية فى الاتحاد السوفييتى ، وبالدروس المستفادة من تاريخ الحزب الشيوعى السوفييتى ، وبالدور القيادى للاتحاد السوفييتى من

أجل السلام ضد الاستعمار ، وبدور الجيش السوفييتى فى معارك التحرير •

ثم سلب منى آخر شىء كان يربطنى بالحزب ؛ نظرية الطريق المستقل الى الاشتراكية : « تأكدت اللجنة العليا أن فى الاتحاد الاشتراكى الألمانى « نخرية » خاصة ، تدعو الى اتخاذ طريق ألمانى مستقل الى الاشتراكية ••• ان محاولة تشييد مثل هذا الطريق الألمانى المستقل الى الاشتراكية : يمكن أن يؤدى الى اهمال المثال السوفييتى الكبير » •

عبر كثير من قادة القمة الكبار فى الحزب عن آرائهم حول « هذا الخط الجديد » ، وصمت « آكرمان » — الذى ارتبط اسمه بنظرية اتخاذ طريق ألمانى مستقل الى الاشتراكية — عن الكلام فى بادىء الأمر ، فلم يعلق بشىء ؛ ولكنه خرج عن صمته فى ٢٤ سبتمبر ، فنشر مقالا طويلا تحت عنوان : « حول الطريق الممكن الوحيد الى الاشتراكية » وصب فيه كل ما عنده حتى الآن من المفهوم الماركسى حول طريق ألمانى خاص الى الاشتراكية : ومما جاء فيه : « تتضمن هذه النظرية عناصر تحديد الطبقة العاملة ، وتحديد الحزب البلشفى السوفييتى » •

أدت ادانة الشيوعيين اليوغوسلافيين عندى الى انفصال داخلى من حزب الاتحاد الاشتراكى الألمانى ، فقد قطعت هذه الادانة الخيط الأخير ، الذى كان يربطنى بذلك الحزب ، الذى اشتركت بحماس زائد فى تأسيسه ، وفى الاستعدادات التى سبقت هذا التأسيس • كانت أسابيع وأشهر ثقيلة ، فقد استمرت الحملة ضد اليوغوسلافيين ، والاساءة الى أولئك الذين روجوا لنظرية الطريق الألمانى المستقل الى الاشتراكية فى ازدياد مطرد •

ألقى « فريد أولسنر » المحاضرة الفاصلة ، وهو الذى بدأ يظهر — بعد النقد الذاتى لـ« آكرمان » — بطريقة واضحة ، كممثل أيديولوجية حزب الاتحاد الاشتراكى الألمانى • وبعد الانتهاء من المحاضرة ، تحدث عدد من المعقبين ، فسر كل شىء كما هو مرسوم من قبل ، ولاحظت أن المناقشة كنت معدة ومنظمة من قبل ، لأنى كنت أعرف هذه الطريقة من بعض لاجتماعات فى الاتحاد السوفييتى • لم تحدث مثل هذه الطريقة من قبل فى المعهد العالى للحزب ، فدل هذا على أن

الاتحاد الاشتراكى الألمـانى قد مضى خطوات فى طريق تطبيق نفس أسلوب الحزب الشيوعى السوفييتى •

ومن هنا لم يكن من الصعب على معرفة ما سيأتى من خطوات ، فسوف يتلو ذلك — طبقا لخطة السير المرسومة — دعاية لتاريخ الحزب الشيوعى السوفييتى ، ثم يتلوها تطبيق عملية « النقد الذاتى بشكلها الستالينى » •

وفى النهاية ستبدأ عملية « تطهير » داخل الحزب ، فى المنطقة الألمـانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتى : سيطرد القياديون ، أصحاب الآراء الذاتية الصادقة ، من وظائفهم ، ويطردون من الحزب أيضا ، وسيقبض عليهم بعد توجيه اتهامات باطلة اليهم ، بأنهم عملاء •

* * *

عودة اللقاء مع أمى

قضيت أجازتى فى أغسطس عام ١٩٤٨ م فى بيت استجمام «مخصص لطائفة معينة » فى « سينوفيتس » عند بحر البلطيق •

كنت مستلقيا على الرمل ناعسا ، عندما سمعت صوتا يصيح من ورائى : « تليفون من برلين » •

تحدث على الطرف الآخر من التليفون أحد القياديين فى قسم التدريب : « وصلت أمك •• عد بسرعة الى برلين » !

وبعد بضعة ساعات كنت جالسا فى العربة متوجها الى برلين ، كى ألتقى بأمى مرة أخرى بعد انفصال دام ١٢ عاما •

ماذا حدث منذ ذلك المساء ، عندما رأيتها آخر مرة فى موسكو فى أكتوبر سنة ١٩٣٦ ! بينما أنهيت فى هذه المدة دراستى فى المدرسة السوفييتية ، والتحقت بالمعهد العالى ، وانضممت لمنظمة الشـباب السوفييتية ، ثم تخرجت من مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ، فأصبحت قياديا مسئولا فى حزب الاتحاد الاشتراكى • بينما حدث لى ذلك كله ، رأت أمى الحيـاة فى الاتحاد السوفييتى من جانب آخر : لقد قضت اثنى عشر عاما فى معسكرات العمل الاجبارية السوفييتية •

كان محكوما عليها من الناحية الرسمية بخمس سنوات « فقط » وكانت تلك أبسط العقوبات فى فترة التطهير ، التى امتدت من عام

١٩٣٦ حتى عـــام ١٩٣٨ م • وكان المفروض أن تنتهى عقوبتها فى أكتوبر سنة ١٩٤١ م ، ولكن توقف الافراج بعد بداية الحرب عن كل المسجونين السياسيين ، الا فى بعض الحالات الاستثنائية النادرة •

وأخيرا ! بدا — بعد نهاية الحرب — أن وقت الافراج عنها قد حان ، فحاولت مرارا القيام بعمل أى شىء مع الادارة العسكرية ، ولكنى كنت أتلقى فى كل مرة صدودا واعراضا • وأخيرا اتجهت الى « فيلهيلم بيـــك » — عندما كنت ضيفا عنده ذات مساء — الذى كان يعرف أمى من أيام رابطة « سبارتاكوس » ، وانقلاب « كاب » فى عام ١٩٢٠ م •

قال لى « بيـــك » : « لا يمكن عمل شىء الآن يا « فولف جانج » ! ولكننا سنستمر فى المحاولة فاذا لاحت فرصة ، فسوف أخبرك » •

وأخيرا طلب منى « بيـــك » فى فبراير سنة ١٩٤٧ م الحضور اليه فى « فيللته » ، فى « نيدرشونهوزن » •

— « توجد الآن فرصة للافراج عن والدتك ، وحضورها الى هنا ، ويستحسن أن تكتب رجاء بهذا المعنى » •

أعطيت فى اليوم التالى طلب الرجاء لسكرتارية « فيلهيلم بيـــك » وانتظرت مؤملا أن يأتى يوم اللقاء ؛ ولكنى وضعت فى تجربة صعبة جدا ، وان كان وضع أمى أكثر صعوبة •

فالشىء الوحيد الذى سمعته ، أن المسألة « أخذت مجراها » • ولم أكن أعلم آنذاك أن أمى نفيت فى هذه الأثناء الى مزرعة حكومية صغيرة فى منطقة « ألتير » حيث كانحت كفاحا مريرا مع رجال السلطة المحلية التابعين لوزارة الداخلية السوفييتية ، لتنفيذ ما وافقت عليه موسكو ، ومضى أسبوع وراء أسبوع ، وشهر عقب شهر ، حتى حصلت أمى فى يوليو سنة ١٩٤٨ م على التصريح بالسفر من وزارة الداخلية السوفييتية ، فوصلت بعد ستة أسابيع — فى أغسطس سنة ١٩٤٨ م — الى برلين • قضت ثلاثة عشر عاما فى الاتحاد السوفييتى ، ومنها اثنى عشر عاما تقريبا فى السجون والمعسكرات وفى مناطق النفى • عندما وصلت الى مبنى الحزب ، استقبلنى أحد القياديين وقال لى :

— « أمك تنزل الآن فى منزل الضيافة التاسع للسكرتارية المركزية » •

لم أرها منذ اثنى عشر عاما ، ولذا لم أستطع الانتظار لحظة ، فاندفعت جريا الى هناك • وعندما فتحت باب حجرتها ، انتفض جسمها

فزعها ، ونظرت الى بابتهاج مشوب بالارتياب • لا زالت صورة ابنها فى ذاكرتها ، صورته قبل اثنى عشر عاما •

ولكنها هى الأخرى تغيرت كثيرا : فهى تثير المشاعر التهابا ، ويبدو عليها مظاهر الآلام ، التى تحملتها هذه السنين الطويلة • وعندما سمعت وقع أقدام شخص يصعد على السلم يصيح بأعلى صوته ، انتفض جسمها من شدة الفزع • لاحظت أثناء تجاذبى معها أطراف الحديث أنها تحطمت ، وأن الفزع والرعب مستول على مشاعرها ، وكثرت أسئلتها التى تنبىء عن الخوف والقلق عندها : هل يجوز هذا ؟ هل يسمح لى بذلك ؟ أين ينبغى على أن أثبت حضورى ؟ ، ولم ترو لى الا فيما بعد عما حدث لها منذ مساء يوم ٢٥ وليلة ٢٦ أكتوبر سنة ١٩٣٦ ، عندما قبض عليها فى موسكو •

احتجزت أولا فى سجن موسكو ، ثم حكم عليها بعد ثمانية أشهر — أى فى يونيو سنة ١٩٣٧ م — بخمسة أعوام ، فأرسلت الى جمهورية « كومى » ثم وصلت أخيرا بعد قضاء مدة طويلة فى عدة معسكرات حجز احتياطى ، الى « كوتشميس » فى يناير سنة ١٩٣٨ م ، وهو تابع لمنطقة معسكر « فوركوتا » وقضت هناك وفى معسكر « العجزة » أكثر من ثمانية أعوام من حياتها ، ثم أفرج عنها أخيرا فى ابريل سنة ١٩٤٦ م — أى بعد تسعة أعوام ونصف من تاريخ القبض عليها — ولكنها أرسلت مع ألمانيين آخرين الى « كوشفا » عند « بيتشورا » ، حيث فرضت عليهم الاقامة الجبرية فى تلك المنطقة ، وأخبرت بأمر وزارة الداخلية ، بأنه لا يجوز لأى ألمانى الرجوع الى محل اقامته السابق ، بل سيرحلون جميعا الى سيبيريا •

خير الألمانيون بين الاقامة فى منطقتين فقط هما : « أومسك » و « ألتاى » ، فاختارات الاقامة فى القرية الصغيرة « كالمانكا » فى سلسلة جبال « ألتاى » • وصلت أمى الى هناك فى مايو سنة ١٩٤٦ م ، ولكن حالتها اشتدت سوءا ، أكثر مما كانت فى معسكر « فوركوتا » • وأخيرا حصلت — بعد أكثر من عامين — على تصريح بالخروج فى ١٩ يوليو سنة ١٩٤٨ م فعادت مع امرأتين أخريين الى برلين عن طريق موسكو (١) •

---

(١) كتبت أمى كتابا عن حياتها بعنوان : « الحياة المسروقة » ونشرته دار النشر الأوروبية فى « فرانكفورت — ماين » •

قضى كلانا — وان كان تحت ظروف مختلفة — جزءا كبيرا من حياته فى الاتحاد السوفييتى ، ولعبت مشاكل النظرة الى الحياة دورا حاسما فى حياة أمى ، كما لعبت أيضا فى حياتى ، ولهذا كان من المسلم به أن ما تناولناه فى حديثنا السياسى الأول هو موضوع « مشكلة النظرة الى الحيـــاة » •

كانت بداية حديثنا عسيرة ، فقد باعدت الاثنى عشر عاما — التى قضتها فى السجن ، والتى قضيتها كعضو فى منظمة الشباب السوفييتية ، وكقيادى — بين وجهتى نظرنا • فرفضت بشدة أول تعبير معارض ، تفوهت به فى حديثنا الأول ، اذ لم أرد بأى حال من الأحوال ، أن أتأثر فى تفوقى السياسى بواسطة مصير أمى • ولم أتنازل عن هذا الموقف الا بعد مضى أسبوع ، فعندما زارتنى فى المنزل ، قررت التنازل عن ترددى الذى تمسكت به حتى هذه اللحظة ، فأردت مصارحتها بأننى — الذى أبدو ظاهريا مقتنعا بالخط ، وبأنى القيادى الذى تربى فى الاتحـــاد السوفييتى — أقف موقف المعارضة فى السر ، وأتعاطف مع يوغوسلافيا •

نظرت الى بعين مندهشة ، مبهورة بما سمعت ، ثم قالت وهى تنفث زفرة ارتياح : « لقد ظننت أنك أيضا من المتعصبين للحزب » •

رويت لها عن الآمال التى راودتنى فى موسكو فى عام ١٩٤٤ م ، وعن دعوة « آكارمان » الى اتخاذ طريق ألمـــانى مستقل الى الاشتراكية ، وعن « مغصى السياسى » ، وقبل هذا كله عن يوغوسلافيا ، التى انفصلت عن موسكو ، لتسلك طريقها الذاتى الى الاشتراكية •

كان كلانا من المعارضين « للستالينية » ، ولكن معارضتى تتصل بجذور مختلفة عن جذور معارضتها ، وتتعلق بمشاكل أخرى •

كانت تتخيل آلام ، ومآسى الذين كانوا معها فى السجن أمام عينيها ، فكانت ثورتها بالتأكيد أشد من ثورتى ، تحدثت عن ملايين الناس الموجودين فى معسكرات العمل الاجبارية ، وعن عشرات الآلاف ، ومئات الآلاف من الثوريين القدامى الذين اتهمهم « ستالين » بأنهم أعداء الثورة فقبض عليهم ، وعن الضحايا التى لا يمكن لأى عقل أن يتصورها وعن المثالية التى حرقت حتى طمست معالمها •

— « ان الاتحاد السوفييتى ليس بلدا اشتراكيا » !

كان هذا أكثر بعدا مما عندى ، فقد كانت معارضتى محصورة فى مسألة الطريق المســتقل الى الاشتراكيـــة ، والمســاواة بين الدول

الاشتراكية • ولم أزل — رغم كل ذلك — مقتنعا بأن الاتحاد السوفييتى بلد اشتراكى • فقرب هذا الحديث بعد المسافة بيننا •

تعودت أمى على الحياة بعد وقت قصير جدا ، فأرادت أن تستأنف العمـــل •

قالت لى : « لقد قدمنا — أنا والسيدتين اللتين وصلتا معى من الاتحاد السوفييتى — طلبات الى ادارة التدريب ، وسوف نتلقى الرد فى الأيام القليلة القادمة » •

كانت رغبة أمى أن تحصل على عمل « محايد » ، أى بعيد ما أمكن عن الحقل السياسى ، وأخيرا عينت فى دار النشر : « الثقافة والتقدم » ، أما زميلتاها فقد انضمتا مباشرة الى حزب الاتحاد الاشتراكى الألمـــانى وحصلتا على عمل سياسى ذو مسئولية كبيرة •

لم تكن هذه حالة فردية ، فقد تعرفت منذ عام ١٩٤٥ م على عدد كبير من القياديين الذين قاسوا كثيرا فى الاتحاد السوفييتى ، أو الذين طحن عضو من أفراد أسرهم تحت وطأة الجوع والقسوة فى معسكرات العمل فى الاتحاد السوفييتى ، ومع ذلك ظلوا على حالهم السابق ، مخلصين لحزب الاتحاد الاشتراكى الألمـــانى وللاتحاد السوفييتى •

كانت أول مقابلة لى مع هذا النوع من الناس فى يونيو سنة ١٩٤٥ م • كنت جالســـا ذات يوم قبل الظهر مع « باول فانديل » فى المبنى رقم ٨٠ فى شارع « برينسين » ، عندما دخل علينا قيادى فى الحزب الشيوعى كان يعرف « باول فانديل » من قبل ، فحياه بحرارة • كان ابن هذا القيادى قد سافر الى الاتحاد السوفييتى ، وتربى هناك •

— « متى يعود ابنى » ؟ سأل القيادى الذى قضى سنوات عديدة فى معسكرات الاعتقال النازية ، ويريد أخيرا أن يرى ابنه •

فأجابه « باول فانديل » بهدوء : « لن يعود » •

— « كيف ذلك ؟ ماذا حدث » ؟ لا زالت قصة هذا القيادى الفظيعة فى ذاكرتى حتى اليوم ، ولن أنساها •

— « لقد ارتكب هناك بعض الحماقات ، ولكنى آمل ألا يؤثر ذلك عليك » •

ذرفت الدموع من عينى قيادى الحزب الشيوعى ، ولكنه مسحها بسرعة •

— « لا •• لا •• طبعا لن يؤثر » •

قال ذلك بصوت متقطع وحزين ، ثم واصل حديثه بنغمة مختلفة تماما : « والآن .. نريد أن نتحدث عن العمل » .

فعين فى وظيفة ذ ت مسئولية كبيرة ، ودافع أيضا عن اقتناع تام عن سياسة حزب الاتحاد الاشتراكى الألمانى ، وعن الصداقة مع الاتحاد السوفييتى ، على لرغم من أن هذا النظام أخذ منه ابنه .

تعرفت أيضا على قياديين وقياديات كانوا هم أنفسهم فى السجون أو فى معسكرات العمل الاجبارية السوفييتية ، ثم عادوا الى برلين الشرقية بعد الافراج عنهم ، وهناك خدموا حزب الاتحاد الاشتراكى الألمانى ، والاتحاد السوفييتى باخلاص .

فالارتباط بالحزب — وخاصة عند القياديين الذين تلقوا ثقافة سياسية — قوى الى درجة لا يستطيع انسان فى الغرب — مطبوع بمصيره الذاتى ، ويتأثر بالأحداث الشخصية أكثر من أى شىء سواها — أن يتصوره ، فالقياديون الذين تلقوا ثقافة سياسية فى مدارس الحزب يظلون فى معظم الأحوال بعيدين عن التأثر — على خلاف وضع الانسان فى الغرب — بتجاربهم الشخصية ، ويتمزق ارتباطهم بالحزب و « بالستالينية » فقط ، عندما يتوصل التفكير النظرى العميق الى لب الأيديولوجية « الستالينية » .

أقامت أمى فى حجرة على مسافة قريبة من سكنى فى « بانكوف » وكنت أقضى دائما نهاية الأسبوع عندها .

تعودت على الأحوال الجديدة بسرعة مدهشة ، وكنت أستطيع هنا فقط أن أفرغ كل ما فى قلبى بصراحة ، فبحت لها لأول مرة عن خطتى للهرب الى يوغوسلافيا .

فقالت لى : « اذا هربت ، فيجب أن أسرع بالرحيل من هنا » .

لم نتناقش طويلا ، فقد كانت موافقة .

وسألت فقط : « متى » ؟ ، نعودت فى حياتها على أشياء كثيرة .

— « سأمكث بقدر ما أستطيع ، فأنا أريد أن أبين قبل ذلك حقيقة النزاع مع مكتب الاستعلامات الشيوعى ، لأكبر عدد ممكن من الرفقاء » .

— « هذا الأسبوع ؟ .. الأسبوع القادم » ؟ سألتنى فقط عندما زرتها فى نهاية الأسبوع .

ـ « انتظرى قليلا .. وأعدى كل شىء ، وسوف أخبرك فى الوقت المناسب » .

ـ « اذا جاء موعد السفر مفاجئا ، وبسرعة ، فأرجو أن تتصل بى تليفونيا وقل لى فقط ، متى سترسل مقالك الى ادارة تحرير الجريدة ، فسوف أفهم من ذلك موعد هروبك » .

تحدثت أمى بتلك النغمة التى كانت تتحدث بها أيام عملها فى الجهاز السرى . فقلت لها : « موافق » .

فوضحت هذه المسألة .

● ● ●

طبقا لجدول مواعيد السفر السوفييتية

ـ « تغييرات كبيرة فى الطريق » .

همس « فريد أولسنر » فى أذنى بهذه الكلمة ، بعد اجتماع فى المعهد العالى للحزب ، ألقى فيه محاضرة .

لم يستطع « فريد أولسنر » أن يشعر بقوة « المغص السياسى » عندى فى ذلك الوقت ، فقد وثق بى ، لأنى زميله فى العمل سابقا ، ولأنى المدرس الوحيد فى المعهد العالى « كارل ماركس » ، الذى تثقف فى الاتحاد السوفييتى .

أخرج بحذر شديد برقيتين من حقيبته ثم قال : « اقرأ » !

كانا مرسلين من « بوخارست » من مكتب استعلامات الأحزاب الشيوعية .

كان فى أحدهما : بيان بالمنشورات التى صدرت حتى الآن عن تاريخ الحزب الشيوعى السوفييتى والعدد الاجمالى المطبوع . وأصدر الآخر ـ فى صيغة سؤال ـ تعليمات للعناية بصورة أكبر بدراسة تاريخ الحزب الشيوعى السوفييتى .

ـ « المسائل واضحة بما فيه الكفاية ، أليس كذلك » ؟

هذا أمر لا شك فيه . ثم ظهر بعد عشرة أيام قرار مطابق من اللجنة المركزية لحزب الاتحاد الاشتراكى الألمانى ، عن تقوية دراسة تاريخ الحزب الشيوعى السوفييتى : « فالطبقة العمالية الألمانية .. يجب عليها أن تتعلم بنوع خاص من تاريخ الحزب الشيوعى السوفييتى ..

فلم يوجد فى التاريخ قط ، حزب أحرز نصرا عظيما مثل الحزب الشيوعى فى الاتحاد السوفييتى « البلشفى » ، فهو بهذا النصر ، أصبح زعيم الحركات العمالية العالمية بلا منازع ، وزعيم الكفاح العالمى ضد الاستعمار » .

انقضت التعليمات دراسة تاريخ الحزب الشيوعى السوفييتى على الاتحاد الاشتراكى كالمقرعة ، فألزم كل القياديين بحضور دورة دراسية قصيرة . ووجهت صحافة الحزب لشن حملة اعلامية لهذه الدراسة ، وأنشىء مكتب خاص للاستشارات فى دراسة تاريخ الحزب الشيوعى السوفييتى ، ونشرت المقالات فى الكراسة الثقافية ، الاشتراكية — وكم كان فرحى ، لأنى لم أعد المحرر المسئول فيها — حول هذا الموضوع وتغيرت الخطة الدراسية التى وضعناها فى عام ١٩٤٦ م لمدارس المراكز ، لكى يفسح فيها « مجالا كبيرا » لدراسة تاريخ الحزب الشيوعى ، فوجب على الدارسين فى هذه الدورة الدراسية الصغيرة دراسته بتعمق . وأصابتنا هذه الموجة بصفة خاصة : يجب انشاء دورة دراسية قصيرة فى المعهد العالى للحزب « كارل ماركس » تكون الأساس للخطط الدراسية .

كنت راضيا دائما ، لأن مستوى الدراسة فى المعهد العالى للحزب كان عاليا . ولكن ماذا سيحدث الآن ، لو ألزمنا بجعل الكتاب البدائى والمحرف تاريخيا — كما عرفت آنذاك ، وان لم يكن من كل الجوانب — أساسا للمناهج الدراسية . لم أكن الوحيد الذى نفذ هذه التعليمات وهو كاره لها . فقد هز كثير من الدارسين والمدرسين — باستثناء المتعصبين للحزب — رؤوسهم أسفا ، وصرح بعضهم بمعارضته لأصدقائه المقربين . وصف أحد المدرسين — وكان من حزب الديمقراطيين الاشتراكيين — تاريخ الحزب الشيوعى ، بأنه كتاب أساطير ، وبين آخر : « يمكن أن تستخدم الدورة الدراسية القصيرة كمدخل على أكثر تقدير ، ولكن يجب أن تهتم الدراسة فى المعهد العالى للحزب فى المقام الأول بالمصادر الأصلية » .

ولم أستطع أنا أيضا أن أغلق فمى ؛ فقد أجبت على سؤال وجه الى من طالب فى قاعة البحث : « يجب علينا عند بحث مسألة الدورة الدراسية القصيرة فى تاريخ الحزب الشيوعى السوفييتى أن ننظر الى الأشياء فى اطارها التاريخى ، فقد ألف الكتاب فى عام ١٩٣٨ م للعامة من

الشعب السوفييتى ، وقد لعب بلاشك دورا هاما • فاذا قيمنا ما فى الكتاب اليوم — بعد عشر سنوات من صدوره — من أحداث ، فسنرى أنها وقعت — طبقا للمقياس الطبيعى — بصورة أخرى • ومما لا شك فيه أن من الأحسن فى وضعنا الحالى أن نأخذ هذه الدورة الدراسية كمقدمة فقط لدراسة هذه الأحداث من منابعها » •

اقتنع الطلبة بهذه الاجابة ، ولكنى لم أحس بأن نظام التجسس وجد مدخلا الى المعهد العالى للحزب ، واستخدم بعض الدارسين للتجسس على ما يقال فى المحاضرات وما يدور فى المناقشات •

انتشر خبر مؤسف بعد يومين بين المدرسين : « سينعقد اجتماع هام للمدرسين • ستجرى فيه عملية نقد ونقد ذاتى بسبب تاريخ الحزب الشيوعى السوفييتى » •

ففكر كل واحد فيما صدر منه فى الأيام الأخيرة •

انعقد فعلا اجتماع فوق العادة للمدرسين ، وألقى « رودولف ليندا و » كلمة الافتتاح ، وكانت نغمتها حادة ، تلك النغمة التى لم أسمعها فى محيط القياديين الكبار منذ بضعة أعوام • ذكرتنى كلمته بتلك الأمسيات التى عقدت فيها جلسات النقد والنقد الذاتى فى مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية • ورنت كلمات فى أذنى كالمطارق : « الدور التحريرى الكبير ، الذى قام به الجيش السوفييتى •• لا تراجع أمام الأصوات الوطنية ••• خيانة زعامة الحزب اليوغوسلافى ••• نظرية الطريق الألمانى المستقل الى الاشتراكية ، معادية للحزب ••• تقوية دراسة تاريخ الحزب الشيوعى السوفييتى ••• الظواهر المريبة بين أعضاء هيئة التدريس ••• ضرورة النقد والنقد الذاتى ••• بخس الانتاج الكبير فى تاريخ الحزب الشيوعى السوفييتى •••• — » ثم بضغط كبير على مخارج الحروف — « الاشارة بوضوح •••• نقلتها جهات موثوق بها ••• الى أن « ستالين » هو الذى ألف تاريخ الحزب الشيوعى السوفييتى ••• » •

جلس المدرسون ورؤساء الأقسام فى المعهد العالى للحزب يسمعون هذا الكلام بأعصاب متوترة • وتكهرب الموقف عندما أعلن أنه قيل : ان مؤلف تاريخ الحزب الشيوعى السوفييتى هو « ستالين » •

ولكنى عرفت أن هذا كذب ، فعندما سمعت هذا لأول مرة قبل بضعة أسابيع خيل الى أنى قرأت فى موسكو أثناء فترة حركة التطهير خطابا

من « ستالين » الى مؤلفى « الدورة الدراسية القصيرة » • وبعد البحث طويلا ، وجدت هذا الخطاب ! نشرت « برافدا » هذا الخطاب فى ٦ مايو سنة ١٩٣٧ م • قرأت — وأنا أهز رأسى أسفا — خطاب الرفيق « ستالين » لى مؤلفى تاريخ الحزب الشيوعى السوفييتى ، فلم يكن هناك مجال للشك : لم يكن « ستالين » هو المؤلف ! وطبيعى أنى احتفظت بهذا لنفسى ، فلم أخبر به أحدا ، ولم أشر اليه أدنى اشارة فى الاجتماع •

بدأت أول جلسة للنقد والنقد الذاتى لمدرسى معهد « كارل ماركس » العالى • انتهى « رودولف ليندار » من كلمته ، وظهر البعض فى « المناقشة » التى جرت بعدها ، كما لو كانوا قد استعدوا لها قبل ذلك ، ونظموا تنظيما دقيقا فى مناقشتهم ، فقد تلا « رودولف ليندار » مدرس كان من الديمقراطيين الاشتراكيين ••

جلس هؤلاء الذين لم يشاهدوا هذه العملية من قبل مندهشين ، وبدا أنهم لا يصدقون أعينهم فيما ترى • ولما كانوا غير متعودين على النظام الستالينى فى عملية النقد والنقد الذاتى ، فقد حاولوا تبرير موقفهم ، ووصل الحد بواحد منهم الى أن يقول : « يجب أن تنظر الى هذه الأشياء نظرة واقعية » • كنت مشفقا عليهم ، فليس عندهم أى فكرة عن هدف عملية النقد والنقد الذاتى •••

سرى التحول الى الطريق السوفييتى بخطوات واسعة ، فبعد الهجوم على نظرية اتخاذ طريق ألمانى خاص الى الاشتراكية ، وتقرير دراسة تاريخ الحزب الشيوعى السوفييتى كمادة أساسية فى كل المناهج الدراسية ، وتطبيق عملية النقد والنقد الذاتى ، « اكتشفت » فى منتصف أكتوبر سنة ١٩٤٨ م « شتلخانوف ألمانى » طبقا للنموذج السوفييتى •

ففى ١٣ أكتوبر طلب « أدولف هيبيكى » أن يرفع الانتاج اليومى فى منجم « كارل ليبكنيشت » فى منطقة الفحم فى « سفيكاو » الى ٣٨٠ ٪ • وسرعان ما صار هذا — مماثلا لعام ١٩٣٥ م فى « شتاخانوف » — انطلاقا « لحركة قوية » لا زلت أذكر جيدا ، كيف درسنا فى المدارس السوفييتية رقم « شتاخانوف » القياسى فى الانتاج فى ٣١ أغسطس سنة ١٩٣٥ م فى منجم « ارمينو » بالقرب من « ستالينو » — وصل انتاج « شتاخانوف » الى ١٤٠٠ ٪ — مرارا وتكرارا حتى الملل •

كان طلب « هينيكى » متواضعا ، فلم ينتج ١٤٠٠ ٪ ، بل ٣٨٠ ٪ ، ولكن ما عدا هذا فقد كان كل شىء متشابها •

عرفت فى الاتحاد السوفييتى شيئا مشابها عن خلفيات حركة « شتاخانوف » : كم يحتاج المرء من الزمن لتجهيز منطقة عمل معينة ، وخاصة خلق ظروف العمل المطلوبة ، اذ تعمل فرقة بأكملها فى انجاز متطلبات العمل ، كى يصلوا الى الرقم القياسى •

لم يعد عندى سراب خادع حول هذا العمل ، ولذا كنت مندهشا من بساطة الأسلوب ، الذى أخبرنا به « رودولف ليندار » فى اجتماع خاص بأعضاء هيئة التدريس عن « حركة — هينيكى » الناشئة :

نريد أن نتحدث هنا بوضوح • نحن الآن فى مرحلة تؤكد ضرورة — بواسطة الموقف الجديد تجاه العمل — تحقيق نهضة كبيرة جديدة فى انتاج العمل • وطبعا لن يحدث هذا من تلقاء نفسه ، بل يجب أن يخطط له بعناية ، وينظم تنظيما دقيقا • بدأ الحديث فعلا حول هذا الموضوع قبل أكثر من شهرين ، ويجب أن نحدد المكان الذى ينبغى أن تنطلق منه هذه الحركة •

تقرر بعد نقاش طويل أن تبدأ الحركة من منطقة « زاكسين » ، ثم اتفق الرأى على الفرع الصناعى ، فتقرر أن يكون المنجم — كما هو الوضع فى الاتحاد السوفييتى — هو نقطة الانطلاق الملائمة •

هل ينبغى أن يختار لهذا العمل عامل شاب أو متقدم فى السن ؟

تقرر فى الاتحاد السوفييتى أن يكون من أعضاء منظمة الشباب السوفييتية ، ولكن يختلف الوضع عندنا فى المنطقة السوفييتية •

سوف يكون من الأسهل جذب الجيل الجديد من العمال لحركة « سياسية » فالمسألة الأساسية عندنا هى تحقيق نهضة بين عمال المصانع والعمال الفنيين المتقدمين فى السن ، ولهذا رؤى أن نختار عاملا منهم •

وأخيرا كان هناك سؤال يحتاج لتوضيح : هل ينبغى أن يكلف بهذا عامل مستقل ، أو لابد أن يكون عضوا من أعضاء حزب الاتحاد الاشتراكى الألمانى ؟

تقرر — بعد مشاورات طويلة — أن يكون عضوا فى حزب الاتحاد الاشتراكى الألمانى ، كى يمثل دور الحزب بوضوح فى هذه المسألة المهمة •

وبعد الاجابة على هذه الأسئلة الجوهرية ، أمكن البدء بعملية

الاختيار ، فسافربعض الرفقاء المسئولين الى منطقة مناجم الفحم فى « زاكسين » مع العمال الموثوق فيهم ، ومع سكرتاريى الحزب فى المنطقة ، ومع مديرى العمل ، لبحث عن العامل المناسب من أعضاء حزب الاتحاد الاشتركى الألمانى • فقابلوا فى هذه الوردية العامل « أدولف هينيكى » الذى وجدت فيه الأوصاف المطلوبة • كان عمره فى ذلك الوقت ٤٣ عاما ، ويعمل فى مناجم الفحم منذ عشرين سنة ، وعضو فى حزبنا ، ودرس أيضا فى مدرسة حزب الاتحاد الاشتراكى الألمانى •

غير أنه وجدت صعوبات لم تكن متوقعة : لم يرد « أدولف هينيكى » فى بادىء الأمر ، ولم يبد استعدادا للقيام بهذا العمل الا بعد أن شرح له المغزى السياسى ، وفرصة تحسن وضعه الذاتى ، وارتفاع مركزه •

ثم نجح فى الوصول لى رقمه القياسى فى ١٣ أكتوبر ، وبهذا نقف الآن عند نقطة انطلاق الى « حركة سياسية » •

وبعد بضعة أيام نشرت الجرائد فى المنطقة الألمانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتى خطاب السكرتارية المركزية عن « أدولف هينيكى » فتحدث عن « عمله المثالى » وعن « المجهود الثورى لتنفيذ الخطة الاقتصادية » •

وكان هذا « اجابة على سياسة مشروع المارشال فى الغرب » •

ولما كنت أعلم حقيقة هذه التمثيلية ، فقد خجلت عندما قرأت فى الخطاب : يتضح من هذا أن عملك نتيجة للتقاليد الثورية للحركة العمالية الألمانية ، التى أصبحت حية فيك ، تلك التقاليد التى تجسمت فى « كارل ليبكنيشت » ، التى يحمل منجمك اسمه بفخر • وهو نتيجة للوعى بالمسئولية الاشتراكية أمام حزبك وطبقتك ، وأمام شعبك •

* * *

منشورات تيتو فى المعهد العالى للحزب

فوجئت فى ٢٢ نوفمبر سنة ١٩٤٨ م بشىء غير سار ، فقد إعلق العدد الجديد من مجلة الحائط فى مدخل المبنى الرئيسى للمعهد العالى للحزب ، فاكتشفت فيها مقالا بعنوان : « يوغوسلافيا والرفيق ليونهارد » وعندما اقتربت منها ، قرأت المقال التالى موقعا عليه باسم « رودولف فريتشى » :

« ستناقش أخطاء الحزب الشيوعى اليوغوسلافى هنا بين المدرسين والطلبة فى المعهد وستطرح للمناقشة المواقف الخاطئة والآراء الغير مسلم بها ، حتى نصل بذلك الى موقف موحد •

وسيكون قرار مكتب الاستعلامات الشيوعى ، وبيان السكرتارية المركزية لحزب الاتحاد الاشتراكى الألمانى أساسا لهذه المناقشة •

كان يمكن للمرء أن يعتبر هذا الموضوع منتهيا لولم تفتقد الآراء الواضحة ، حوله فى المعهد ، وليس المقصود بها رأيى فقط ، بل رأى الرفيق « ليونهارد » •

لا زلت أذكر محاضرة ألقاها الرفيق « ليونهارد » صور فيها — على أساس خبرته الواسعة ومعلوماته الغزيرة — الوضع فى يوغوسلافيا ، وتحدث — عن اقتناع — عن المجهود الضخم الذى قام به الشعب اليوغوسلافى وتيتو • ووصف عمل الحزب الشيوعى اليوغوسلافى بأنه عمل فريد من نوعه • يوغوسلافيا تسير فى مقدمة كل الدول الديمقراطية الشعبية على طريق الاشتراكية • ويكفى هذا الآن ، فلا أريد رواية هذه الأشياء ، فأنقب عن القديم البعيد ، الذى أسدل عليه ستار من النسيان • غير أن من المهم جدا لنا كلنا وللرفيق « ليونهارد » أن نسمع منه رأيا واضحا ينقد فيه اليوغوسلافيين ، وهو الرأى الذى افتقدناه حتى الآن » •

وضح لى أن الطالب « رودولف فريتشى » — الذى يدرس فى قسم الاقتصاد — لا يمكن أن يكون قد كتب هذا المقال بدافع ذاتى • لقد كان « طلقة انذار » من جهات عليا • كان الاتجاه واضحا ، فقد أريد استفزازى لعملية نقد ذاتى • ماذا أفعل ؟ فكرت فى هذا الموضوع طويلا ، وعاودت التفكير فيه مرارا ، ولم تخرج هذه المشكلة من رأسى أياما عديدة •

وأخيرا أعددت الرد — فى سطور قليلة ، وأشرت فيه الى أن المشكلة اليوغوسلافية معقدة ، لا يمكن أن تناقش فى مقال ينشر فى جريدة حائط • ولكنى على استعداد أن أتحدث أمام المهتمين بهذا الموضوع •

سلمت الرد لأحد المسئولين عن تحرير مجلة الحائط ، فقرأه بسرعة ، ثم نظر الى غير مصدق قائلا : هل تعتقد أنهم سيقتنعون بهذا أيها الرفيق « ليونهارد » ؟ أدهشنى ضغطه الغريب على مخارج الحروف ، وكلمة « هم » . وسرعان ما غرقت مع المسئول عن تحرير جريدة الحائط فى حديث عميق الأغوار ، فلاحظت أنه أيضا مصاب « بالمغص السياسى » من مسألة يوغوسلافيا .

كان هذا المحرر شابا شيوعيا من ألمانيا الغربية ، وكان معروفا فى المعهد العالى للحزب بالاسم الحركى « فوندرليش » ولكن اسمه الحقيقى هو « هيرمان فيبر »(١) .

وضح مقال جريدة الحائط لى أن اجراءات سوف تتخذ ضدى ، لو لم أعلن رأيى بسرعة فى قرار مكتب الاستعلامات الشيوعى . ولكن لم يوجد أمامى خيار فى هذه المسألة ، ولا أى مسوغ بعد ذلك . وهكذا أعددت كل شىء للهروب الى يوغوسلافيا .

وبعد أيام قليلة — أى فى ٢٩ نوفمبر — أقامت السفارة حفلة بمناسبة يوم التحرير الوطنى ، ودعيت لحضور هذه الحفلة .

لم تكن هناك مغامرة فى تلبية هذه الدعوة ، لأن من المتوقع أن يحضر ممثلون عن الاتحاد السوفييتى أيضا ، ولكن لابد أن أوضح لليوغوسلافيين أننى أقف بجانبهم فى مسألة النزاع بينهم وبين مكتب الاستعلامات الشيوعى .

حضر الحفل دبلوماسيون من كل البلاد غير السوفييتية ، كما حضرها بعض الممثلين السوفييت . لم يشعر أحد من الضيوف أنه يوجد فى هذا المحيط معارض من حزب الاتحاد الاشتراكى الألمانى ، وهو مدرس فى معهد « كارل ماركس » العالى التابع للحزب ، ومن المسلم به أنه لم تصدر منى أدنى اشارة تبين موقفى . فاذا اضطررت عند « البوفيه » أو فى المجموعات الصغيرة الى حديث لا يمكن الهروب منه ، تحدثت بالانجليزية ، ومع اليوغسلافيين بالروسية .

---

(١) انفصل « هيرمان فيبر » عن الستالينية بعدى ببضعة أعوام ، ويعيش الآن فى ألمانيا الاتحادية ، ولا زالت النسخة الأصلية من مجلة الحائط عنده .

انتهى الحفل فى حوالى الساعة الثانية عشرة ، أى فى منتصف الليل .

— « انتظر قليلا ، فسوف نتحدث بعض الشىء » دعيت للبقاء بهذه الجملة ، فكان الحديث فى قمته ، لأنه لم يكن معنا أحد . كنا نجلس مجموعة صغيرة ، وفجأة انتصب يوغسلافى واقفا ، وتحدث بكلمات من قلبه عن الثورة والنضال الذى لا زال أمامنا واستهزأ باتهامات مكتب الاستعلامات الشيوعى . ولأول مرة أسمع هنا تلك الكلمات التى سمعتها فيما بعد فى يوغوسلافيا مرارا : « لابد للحق أن ينتصر » .

جاء قيادى يوغوسلافى الى المنضدة التى كنت جالسا عندها وقال :

— « أيها الرفيق « ليونهارد » .. لقد سمعنا أنك تريد أن تأتى الينا ، وليس هناك أى مانع من جانبنا ، يسرنا جدا أن تكون معنا فى هذا الوقت ، ولكن أرجو ألا تتخيل صورة خاطئة ، فليست الحياة سهلة الآن فى يوغوسلافيا ، وربما تشتد صعوبة فى الأشهر القادمة ، وربما لسنوات ، فلا تتخيل ورودا ، اذ تنتظرنا مصاعب جمة ، ربما تحب أن تعيد التفكير مرة أخرى » ؟

— « لا .. لا أحتاج الى تفكير بعد هذا ، لقد فكرت بما فيه الكفاية ، فأنا مصمم على القرار الذى اتخذته . أقف بجانبكم ، وأريد أن أكون معكم » .

ابتسم ، ثم ضغط على يدى :

— « حسنا .. موافقون ، والى اللقاء فى يوغوسلافيا » !

اتجهت أفكارى بعد هذا اليوم — ٢٢ نوفمبر — فقط نحو يوغوسلافيا . ولكن أردت — فى الوقت الذى أبقى فيه فى المعهد العالى للحزب — محاولة نشر ما أنا مقتنع به بقدر ما يمكننى .

لم تنقطع المناقشة حول يوغوسلافيا . فكان عدد القادمين الى من طلبة المعهد ومن القياديين فى برلين يزداد كل يوم .

— « قل لى يا « فولف جانج » ما رأيك ؟ كنت هناك فى يوغوسلافيا ، فماذا ترى فى هذه المشكلة » ؟

لم أستطع التخفى وراء غطاء عام فى الموافقة على أخطاء الشيوعيين اليوغوسلافيين ، ولم أنجح فى سلوك هذا الطريق ، ومن ناحية أخرى

لم أستطع أن أقول رأيى بصراحة لكل احد ، وهكذا اضطررت الى تمثيل المواقف المختلفة ، ذلك الأسلوب الذى تستعمله الاشتراكية عند الضرورة •

فأعطيت للمخلصين لـ« لينينية » اجابة مراوغة ، وألمحت للقياديين الذين يفكرون تفكيرا حرا الى أننى أعتبر موقف مكتب الاستعلامات خاطئا ، وأعطيت للمعارضين ترجمة للمنشورات اليوغوسلافية •

نجحت الفكرة ، ووجه معظمهم الى الحقيقة التى أثرت فيهم تأثيرا خاصا : نشر كلا الرأيين فى يوغوسلافيا ، قرار مكتب الاستعلامات الشيوعى ، والرد اليوغوسلافى عليه • وهكذا استطاع كل واحد أن يحكم بنفسه •

ولكن لم ينشر عندنا الا قرار مكتب الاستعلامات الشيوعى فقط ••

قابلت قياديين معارضين ، حيث لم أتوقع ذلك ، فقد خرجت ذات مرة أتجول مع قيادى فى الحزب أنصت الى بكل « ريبة » ، فأعطيته المنشورات ورجوته — محذرا اياه — أنها للعلم فقط « لأننا من النوع الذى يقرأ مثل هذه الأشياء بهدوء » •

ثم تقابلنا فى حرم المعهد بعد ثلاثة أيام ، فنظر الى — ولم يكن أحد بالقرب منا — وقال بصوت عال : « لا أستطيع التحمل أكثر من هذا ، فالمسألة اليوغوسلافية سفالة ؛ فلبست هى الاتهامات السياسية فقط ؛ بل يوجد فى الخلفيات شىء آخر ، اذ يقف « ستالين » وراء ذلك ، هذا النصف مثقف ، هذا المتوحش الذى لا يستطيع احتمال أن حزبا آخر — هو الحزب اليوغوسلافى — وزعيما آخر — هو تيتو — محبوبان فى الغرب أكثر منه • آه •• لو تعلم مدى كرهى لـ« ستالين » — نعم •• أكره « ستالين » •

تملكنى الخوف ، وامتلأت رعبا فلم أسمع مثل هذه الكلمات قط ، وبالاضافة الى ذلك أسمعها الآن فى حرم المعهد العالى لحزب الاتحاد الاشتراكى الألمانى — تمالكت أعصابى •

مد يده الى • فأجبته : « سيظل سرا » •

ذهبت فى ضحى هذا اليوم أتجول وحدى ، فتذكرت أنى قرأت فى

مكان ما أنه ليس من النادر أن يخرج الزنادقة المكافحون من المدارس اليسوعية •

هل سيتكرر هذا ؟ هل سيجلب المعهد العالى « معهد كارل ماركس » لحزب الاتحاد الاشتراكى الألمانى مزيدا من الزنادقة الخطرين ؟

ظل قياديو الطبقة العليا ملتزمين « الخط » التزاما حرفيا • ذهبت — للمرة الأخيرة — فى نهاية الأسبوع الى حى « الفيللات » المسور فى « نيدرشونهاوزن » حيث يسكن زعماء حزب الاتحاد الاشتراكى الألمانى الكبار العشرة • تحدثت فى الأسابيع والشهور الأخيرة كثيرا مع المعارضين لدرجة أنه أصبح ثقيلا على أن أجلس فى « فيلا » هذا الزعيم الكبير ، الذى تظهر صورته كثيرا فى جريدة « ألمانيا الجديدة » •

قدم لى زعيم حزب الاتحاد الاشتراكى الألمانى الكونياك والسجائر • ثم اتجه الى قائلا : « التأثر ظاهر على وجهك ، هل عندك « مغص سياسى » بسبب يوغوسلافيا » ؟

— « قرأت بعض ما نشرته يوغوسلافيا فى الأيام الأخيرة و••• » • فقال مبتسما :

— « ينبغى ألا تقرأ كثيرا عن هذا الموضوع » • ولكننى أحسست بالخطورة وراء كلماته •

— « لم يركز الكتيب الجديد فقط على بيان ما اذا كان قرار مكتب الاستعلامات الشيوعى صحيحا أو غير صحيح ، بل وضع أيضا بعض الأسئلة الأساسية ، التى لا يمكن لأحد أن يتخلص منها بحركة من يده » •

نظر الزعيم الى بهدوء وبرود :

— « يوجد فى السياسة أحيانا أوضاع يخلط فيها الشىء الجيد بالأدلة الضعيفة ، والشىء الضعيف بالأدلة الجيدة » •

تصورت مرة أخرى مندهشا متحسرا — بأى نوع من أنواع الكلام يحاول بعض القياديين تبرير التعارض الواضح لغيرهم ، وربما فى المقام الأول لأنفسهم ذاتهم • فتقدمت خطوة أخرى بحذر •

— « يبدو لى أن الأمر لا يتعلق هنا بأدلة قوية أو أدلة ضعيفة ، بل بمبدأ أساسى ماركسى معين • فقد أشار اليوغوسلافيون فى نشرتهم الى أن وضعا جديدا نشأ بقيام الدول الديمقراطية الشعبية ، وتتواجد هذه البلاد فى الطريق الى الاشتراكية ، وبهذا يطرح هذا السؤال نفسه : على أى وضع ينبغى أن تكون علاقة هذه البلاد مع الاتحاد السوفييتى ؟ ويرى اليوغوسلافيون — وأظن أن ذلك مطلب ماركسى صحيح — أن العلاقة بين البلاد الديمقراطية الشعبية والاتحاد السوفييتى يجب أن تكون على قدم المساواة ، وأنه لا يوجد هناك دولة زعيمة ، وأخرى تابعة ، بل دول متساوية » •

ثارت أعصاب الزعيم ، فأشار بيده قائلا :

— « ولكن يا « فولف جانج » فلنقف مرة على أرض الحقيقة العارية ، ما معنى المساواة هنا ؟ أعرنى انتباهك فالنضال الذى انتشر فى العالم هو بكل أبعاده لعبة شطرنج كبيرة » •

وأشار بيده الى لوحة الشطرنج :

— « يوجد أبيض وأسود على هذه اللوحة ، ويواجه اللاعبان أحدهما الآخر بأشكال مختلفة من قطع الشطرنج ، تختلف فيه كل قطعة باختلاف شكلها وطريقة حركتها على اللوحة • ولكن تحريك هذه القطع لا يمكن أن يكون الا من المركز ، وهذا المركز هو موسكو فقط •• أو — وقال ذلك ساخرا — هل تريد أن تضع بلغراد مكان موسكو » ؟

تذكرت « ماركس » و « انجلز » اللذين كانا ضد وجود حزب زعيم داخل الشيوعية العالمية ، وتذكرت « لينين » الذى رفض بعد انتصار الثورة فى روسيا فكرة زعامة الحزب البلشفى المنتصر ، وهاجمها •

فسر الزعيم صمتى تفسيرا آخر ، فقد اعتقد أن نظرية التمثيل بلعبة الشطرنج أثرت فى نفسى فقال :

— « يجب أن نقترب من الموضوع مجردين من أى اتجاه ، فلست قياديا جديدا فى الحزب • هل لاحظت مرة شيئا خاصا فى سمات الاتحاد السوفييتى واتحاد الجمهوريات السوفييتية » ؟

لم أفهم بسرعة ، ماذا يريد بهذ السؤال • واستطرد قائلا :

— « لا يظهر مفهوم روسيا هذه السمات ؛ وليس هذا من باب المصادفة ، وبهذا مهد الطريق للبلاد التى تتحول فيما بعد الى الاشتراكية ، للانضمام لهذا الاتحاد • هل تعتقد أننا — اذا وصلت البلاد الديمقراطية الشعبية ، وفيما بعد المنطقة الألمانية أيضا الى أسس الاشتراكية — نستطيع أن نعيش كدولة مستقلة ، لا ترتبط بالاتحاد السوفييتى ؟ يجب أن نمارس سياسة واقعية فى هذه الأشياء • لا نستطيع هنا — فيما بيننا — أن نتحدث بصراحة » •

وعلى الرغم من أننا كنا وحدنا فى الحجرة فقد انخفض صوته وهو يقول : « من الممكن — لا أقول يجب أن يكون هذا — أن تنضم البلاد الديمقراطية الشعبية فيما بعد كجمهوريات جديدة الى اتحاد الجمهوريات السوفييتية الشعبية • وطبعا لن نقول هذا اليوم ، ولا ينبغى أن نذكر ذلك لأحد اطلاقا ، ولكن يجب أن تعلم ذلك على الأقل • هذه هى الحقائق ، وليست المناقشة على أسس متساوية بين البلاد الاشتراكية » •

أكد لى هذا الحديث أنه لا يوجد مكان لى فى هذا الحزب ، فلم يكن هدفى اتحاد جمهوريات سوفييتية جديدة ، بل دولة ألمانية اشتراكية مستقلة •

لا يمكن أن يظل التعارض بين عملى الرسمى فى حزب الاتحاد الاشتراكى الألمانى وبين توزيع المنشورات اليوغوسلافية ، على القياديين وقتا طويلا فى طى الكتمان ، فأنا أعلم أنى لن أستطيع الاستمرار طويلا فى هذا العمل ، ولهذا أسرعت فى تجهيز كل شىء للهروب •

فكرت مرارا فى أن أقول الحقيقة عن قرار مكتب الاستعلامات الشيوعى فى محاضرة عامة أمام كل الدارسين والمدرسين فى المعهد العالى للحزب ، وأدلل على افتراءات هذا المكتب ، وأتحدث عن الطريق المستقل الى الاشتراكية • وعندما فكرت بهدوء فى هذا الأمر ، تبين لى أن هذه الأفكار كانت جنونا •

ماذا يمكن أن أصل اليه بهذا العمل ؟ فسوف أمنع من الكلام بالقوة بعد الجمل الأولى ، وأختفى فى مكان لا أستطيع أن أقول فيه شيئا أبدا •

فقلت لنفسى : « ثورى رومانتيكى » • سيكون كلاما صادقا ، ولكن « لا طائل من ورائه » • ولهذا بدا لى أن ما يخدم الهدف هو

البقاء ما أمكن فى المعهد العالى للحزب ، وتوضيح الوضع لعدد أكبر من القياديين بحذر شديد فى أحاديثنا الخاصة ، وتحريكهم ، واذا وجدت قبولا لديهم ، أعطيهم المنشورات ، فلو اكتشفت هذه الطريقة ، فيمكننى أن أحاول الهرب الى يوغوسلافيا • وسيؤثر مثل هذا الهروب الى يوغوسلافيا على عدد كبير من الرفقاء ، فيجعلهم يفكرون فيما يدور حولهم من أحداث — لقد كنت القيادى الوحيد فى حزب الاتحاد الاشتراكى الألمانى ، الذى زار يوغوسلافيا بعد عام ١٩٤٥ م زيارة رسمية •

كنا فى فبراير سنة ١٩٤٩ ، ازدادت خطوات حزب الاتحاد الاشتراكى الألمانى سرعة نحو « النموذج الروسى » ، ففى مؤتمر الحزب الأول الذى عقد فى الفترة من ٢٥ — ٢٨ يناير سنة ١٩٤٩ م ألغيت المساواة بين أعضاء الحزب الديمقراطى الاشتراكى السابق ، وبين أعضاء الحزب الشيوعى السابق ، ففضل بذلك — بنوع خاص — أعضاء الحزب الشيوعى الألمانى ، الذين عاشوا فى موسكو فترة كلاجئين سياسيين ، وحلت السكرتارية المركزية لحزب الاتحاد الاشتراكى الألمانى ، وأنشىء بدلا منها مكتب سياسى يتكون أعضاؤه من تسعة ، ستة منهم من قادة الحزب الشيوعى السابق ، وثلاثة من الديمقراطيين الاشتراكيين السابقين ، كما أنشئت « سكرتارية صغيرة » تحت قيادة « أولبريخت » •

ثم تبع ذلك انشاء مجلس رقابة مركزى فى الحزب بقيادة « هيرمان ماتيرن » •

وسار هذا كله تحت شعار التطور الى « النموذج الجديد للحزب » — ولكنه لم يكن سوى خطوات أوسع ، نحو تقريب حزب الاتحاد الاشتراكى الألمانى من الحزب « الستالينى » فى الاتحاد السوفييتى • ولم تظل الأحزاب الشيوعية فى غرب أوروبا بعيدة عن هذا التيار ، فقد طلب من زعماء تلك الأحزاب فى نهاية فبراير سنة ١٩٤٩ م التصريح علنا بأن الأحزاب الشيوعية ستساعد القوات السوفييتية فى حالة وقوع نزاع عسكرى وأذاع المكتب السياسى لحزب الاتحاد الاشتراكى الألمانى بيانا بهذا المعنى فى ٢ مارس سنة ١٩٤٩ ، وبهذا اختفت آخر ظاهرة للاستقلال ، فقد أعلن الحزب علنا أنه وحدة مساعدة للجيش السوفييتى •

كان هذا آخر بيان لحزب الاتحاد الاشتراكى الألمانى عاصرت ظهوره فى المنطقة الألمانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتى •

زارنى — بعد أيام قليلة — أحد القياديين فى مسكنى فى المعهد العالى للحزب • كان مترددا فى الافصاح عما عنده :

— « أريد أن أتحدث معك فى موضوع سرى » •

— « مغص سياسى » ؟

— « نعم •• وخطير » !

— « موافق •• سيظل سرا ، ما الخبر » ؟

تحدثنا ما يقرب من نصف ساعة باشارات كلها حذر ، وفجأة قال :

— « هل تعلم •• أحيانا يصيبنى شعور بأن ما يقال عن يوغوسلافيا ليس صحيحا » مددت يدى اليه ، وسلمت عليه بحرارة •

— « لم يخدعك شعورك ، فأنا مقتنع بأن الحق فى جانب اليوغوسلافيين » •

نظر الى مندهشا ، فلم يكن يتوقع هذا ••

فتحت درج مكتبى المقفول دائما ، وأخرجت منه مجموعة كبيرة من النشرات اليوغوسلافية المطبوعة باللغة الألمانية ، ووضعتها على المنضدة •

انقض على الكتيبات انقضاضا ، وقال لى : « أعطنى هذا لأقرأه ، فلم أحصل على شىء حتى الآن ، وكنت أبحث عن هذا بالذات » •

— « مهلا •• مهلا •• » •

اذ يجب على كبح جماح الأعضاء الجدد المشتركين معى فى التفكير •

— « خذ أولا الرد اليوغوسلافى على قرار مكتب الاستعلامات الشيوعى وخطاب « تيتو » فى مؤتمر الحزب الخامس ، فاذا انتهيت من قراءتها ، أعدها وخذ غيرها ، ولكن كن حذرا » ! وعدنى بذلك ، ووضعها فى جيبه الداخلى وانصرف •

شيعته قلقا ؟ فعنده حاسة سياسية جيدة ، ولكن هل عنده أيضا خبرة فى التخفى ؟ فقد كان — على لرغم من أنه كان يتولى مركزا عاليا فى الحزب — أصغر منى ببضع سنوات • ولم يتلق دراسات ذات أنظمة شديدة فى التكتم •••

عاد الى فى صباح اليوم التالى مبكرا جدا ، وكان معجبا بهذه النشرات •

— « أخيرا وجدت رفيقا ، أستطيع أن أتكلم معه بصراحة » •

هزنى بأفكاره التى تعارض سياسة الحزب ، ولكن ازداد قلقى • كانت صراحته مجردة للسلاح ، ولكن طريقته الغريبة ، يمكن أن تصبح خطيرة علينا • وبعد بضعة أيام رأيته فى صالة مطعم المعهد العالى للحزب جالسا على منضدة وحوله مجموعة كبيرة من القياديين ينظرون اليه باهتمام • كان من بينهم بعض المتعصبين للحزب — ولكنه كان يتكلم ••• فخرجت مسرعا • ثم علمت فيما بعد أن الخطر بدأ فى ظهر هذا اليوم على مائدة الغداء ، فقد تحدث علنا فى صالة مطعم المعهد العالى للحزب عن يوغوسلافيا ، وعن قرار مكتب الاستعلامات الشيوعى وأجاب عن كل الأسئلة — ومنها أيضا أسئلة مثيرة — التى وجهت اليه ، فهو يعرف النشرات ، فباح بحقيقة الوضع الصحيح • ثم ماذا •• ففى لحظات الانفعال ذكر اسمى باعتبارى الشاهد الأول •

قال : « فولف جانج ليونهارد » أيضا انه ••• » ثم حاول فى اللحظات التالية أن يتدارك ما وقع منه ، ولكن الكلمات كانت قد خرجت ، وسبق السيف العزل •

* * *

النقد الذاتى الأخير

ذهبت فى اليوم التالى الى محاضرتى العادية ، دون أن أعلم بما حدث ، فقيل لى : « يجب أن تذهب حالا الى « رودولف ليندار » • فتوجهت اليه ، فوجدته واقفا أمام مكتب العميد •

قال بغضب دون أن يمد يده الى كعادته :

ـ « أريد أن أتحدث معك بعد الانتهاء من قاعة البحث » •

لم أشعر بثقل الاشراف على المناقشة فى قاعة البحث قط مثل ما شعرت فى هذا اليوم ، فقد كنت أنظر الى الساعة فى كل دقيقة ، وأخيرا مضت الثلاث ساعات •

ذهبت الى « ليندلو » فتقدمنى الى مكتب العميد دون أن يقول كلمة ، فوجدت هناك خمسة من القياديين جالسين فى المكتب وأمامهم أوراق وأقلام رصاص • كان المنظر يشبه ما كان فى خريف عام ١٩٤٢ م فى مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية • مضى على هذا المنظر ست سنوات ونصف ، والآن •••

فى أوائل عام ١٩٤٩ أقف مرة أخرى أمـام تحقيق ، يقوم به المتعصبون للحزب ، أقف أمام نقد ونقد ذاتى •

نظرت بهدوء الى القياديين الذين يجلسون أمامى ، ومما لا شك فيه أنى لم أشعر بارتياح ، ولكنى لم أعد متأثرا نفسيا بمراكزهم ، فهم ليسوا شيوعيين اطلاقا ـ هكذا فكرت فى نفسى ـ ، فالشيوعيون الحقيقيون هم أولئك الذين يكافحون ضد الوضع المهين فى ركاب الاتحاد السوفييتى ، وضد الطريقة اللا انسانية التى تدفع الشعوب بها دفعا الى طريق الاتحاد السوفييتى •

بدأ التحقيق !

كنت أعرف ـ ما عدا « رودولف ليندلو » مدير المعهـد ـ من الموجودين واحـدا فقط • لم أصـدق عينى : هنا يجلس « هيربرت هبنيشكى » الذى كان معى فى عام ١٩٤٢ م فى مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ، وكان أضعف تلميذ آنذاك ، فكلفنى « باول فانديل » (كلاسنر) أن أساعده أيام الاستعداد للامتحان •

بدأ التحقيق بنفس الطريقة التى شاهدتها قبل ست سنوات ونصف فسمعت مقدمة سياسية طويلة تحطم الأعصاب ، تناولت الوضع ، والثقة فى الحزب وفى الاتحاد السوفييتى ، وضرورة النضال ضد الانحرافات ، ولكن ما أثر فى نفسيتى تأثيرا عميقا فى عملية النقد والنقد الذاتى الأولى

ليس له أى أثر عندى الآن ، فقد كنت أشعر آنذاك بأنى مرتبط بالحزب برباط وثيق .

ولكن الوضع الآن شىء آخر ، اذ انقطعت عن الحزب داخليا ؛ فلم تعد مناظره المسرحية تؤثر فى نفسى . سرحت أفكارى بهدوء أثناء عملية التحقيق كلها : دعوى اتخاذ طريق مستقل الى الاشتراكية قائمة على نظرية « ماركس » و « انجلز » و « لينين » ، فالحق فى جانب اليوغوسلافيين الذين يسلكون طريقا خاصا يتفق مع ظروف بلادهم . أما أولئك الذين يهاجمون الشيوعيين اليوغوسلافيين ، فقد تركوا أساس « الماركسية — اللينينية » .

تتفق دعوى مساواة الأحزاب الشيوعية داخل الحركة العمالية الشيوعية مع نظرية « ماركس » و « انجلز » و « لينين » ، أما أولئك الذين يستبدلونها بنظرية « الدور القيادى » للاتحاد السوفييتى ؛ فقد انحرفوا عن « الماركسية » . وفى غضون ذلك انتهت كلمة « رودولف ليندلو » وتحدث اثنان آخران طبقا للتقليد المعروف .

وعندما بدأ الثالث فى الحديث — وبه يبدأ التحقيق الأصلى — أدركت موقفى ادراكا سليما ، لا فائدة من المناقشة مع هؤلاء المتعصبين للحزب ، فلم يكونوا من مناضلى الطبقة العاملة ، وان كانوا لا زالوا يدعون ذلك ، ولم يكونوا « ماركسيين — لينينيين » وان كانوا يكررون ذلك دائما . لم يكن هناك أمامى سوى شىء واحد : كسب الوقت ، لكى أتمكن من الهرب الى يوغوسلافيا ! وهذا معناه انتصرف بأسلوب « تكتيكى » ، علمونى هذا « التكتيك » ، والآن أستخدمه ضدهم . قررت الاعتراف ببعض الأخطاء ، ووضع نفسى كمرتاب ، وبهذا أستطيع الوصول الى وضع لا يمكنهم ازاءه اتخاذ اجراء صدى ، بل تقرير عقد جلسة أخرى . كسبا للوقت .. ربما أستطيع الهروب الى يوغوسلافيا قبل ذلك .

— « أعتقد أننا نستطيع الآن لانتقال الى المشكلة ذاتها » كان هذا هو صوت « ليندلو » .

كان « ماخنوفا صغيرا » فى برلين فى أوائل عام ١٩٤٩ م ، ولكنه كان نفس الصوت والنغمة التى سمعتها فى خريف عام ١٩٤٢ م فى

« كوشنارينكوفو » فى « بشكيرين » البعيدة : أصوات المتعصبين للجهاز (أذيـــال الجهاز) متشابهة فى كل مكان •

أمطرت بوابل من الأسئلة :

ـــ « هل صحيح أنك أعطيت المنشورات اليوغوسلافية المعادية للحزب لأحد الرفقاء لقراءتها » ؟

ـــ « نعم » •

انكبت الرؤوس على الأوراق ، تدون الملاحظات فى فترة الاستراحة القصيرة بعد اجابتى •

ـــ « هل صحيح أنك تحدثت مع طلبة المعهد العالى للحزب عن نموذجين من القياديين ، أحدهما : هم أولئك الذين ناضلوا فى تنظيمات سرية ، والآخر : هم أولئك الذين كانوا ممثلين للحزب فى الاتحـــاد السوفييتى » ؟

ـــ « نعم •• ولكنى قصدت بذلك •• » •

ـــ « سيكون عندك وقت فيما بعد للتعبير عما عندك ، وليس لك الآن سوى الاجابة « بنعم » أو « لا » •

ـــ « نعم » •

ـــ « هل صحيح أنك وصفت أولئك الذين كانوا يقومون بنشاط داخل الوطن فى ذلك الوقت بأنهم نماذج ، وادعيت أنهم مناضلون من أجل سياسة أكثر استقلالا ؟ وهل ذكرت فى هذا الصدد الأسماء التالية : « تيتو » و « جومولكا » و « ماركوس » و « ماو تسى تونج » ؟

ـــ « ماو تسى تونج » أيضا » ؟

تساءل « هيربرت هينيشكى » الذى كنت أعلى منه فى النفوذ السياسى فرمقه الآخرون بنظرات حادة ، فخجل •

ـــ « هل صحيح أنك صرحت لطلبة آخرين بارتيابك فى تزكيـــة وجود شركة سوفييتية فى المنطقة الألمـــانية ، وهاجمت الخبراء السوفييت فى البلاد الديمقراطية الشعبية » ؟

— « نعم » • قلت ذلك مدركا أنى لا أستطيع أن أفعل غير هذا • أصابنى رعب عند سماع الجملة الأخيرة ، فلم أتحدث عن هذا مع الصديق الذى كان متحمسا • ولكنى صرحت به لاثنين آخرين ، فأخبرا القيادة بذلك •

— « هل صحيح أنك أعطيت ملخصا للكتاب الردىء ، الذى ألفه « كوستلر » ؟

— « نعم •• ولكنى لم أوافق « كوستلر » فى آرائه » •

— « لم نسأل عن هذا . يكفى أنك أعطيت هذا الكتاب الردىء • هل كان من رأيك فى حديثك مع الطلبة ؛ أن المنشورات المعادية للحزب ؛ التى نشرها المعارضون والوطنيون اليوغسلافيون يجب أن تنشر فى صحافة الحزب . وتعقد ندوات لمناقشتها » ؟

— « نعم » •

كسب الوقت •• كسب الوقت • — كان هذا هو الشىء الوحيد الذى فكرت فيه فى ذلك الوقت •

انتهى التحقيق المباشر ، ويأتى « التقييم » و « التحليل » الآن • أعطيت الكلمة لممثل قسم التدريب :

— « لست فى حاجة الى أن أقول لك أيها الرفيق « ليونهارد » ان هذه الأشياء خطيرة جدا • — (كانت نغمته تهديدية ، ورغم هذا فقد شعرت بارتياح ، لأنه لا زال يخاطبنى بكلمة « رفيق » • اذن •• لن يتخذ اجراء فورى ؛ وربما يحكم بفترة اختبار •) — هذه الأشياء أشد خطورة ؛ لأنها صدرت من رفيق نشأ فى الاتحاد السوفييتى • وسوف نناقش موقفك وتعبيراتك العدائية للحزب فيما بعد ، ولكن لا يحتاج الحزب اليوم الى التفصيلات • وعلى الرغم من خطورة حالتك ، فسوف يعطيك الحزب فرصة — نظرا لعملك الذى قمت به حتى الآن — لكى تصحح أخطاءك الفظيعة بزيادة نشاطك زيادة كبيرة ، ولكن لا ينبغى أن ينسيك هذا أنك استخدمت ثقة الحزب فيك استخداما سيئا » •

ثم أخذ المتعصب للحزب استراحة ، ونظر الى نظرة شزراء هازا رأسه • — يبدو أنه كان من الصعب عليه أن يفهم « وضعى » اذ لم يقابل

حتى ذلك الحين سوى ديمقراطيين اشتراكيين سابقين ؛ أو شيوعيين فدامى ، يحاولون التخلص من التهم الموجهة اليهم — .

— « والآن .. قل لى أيها الرفيق « ليونهارد » كيف يبدو الوضع عندك فى هذا الطريق الذى سلكته ؟ كيف أضلتك المشكلة اليوغوسلافية هذا الضلال » ؟

قلت لنفسى : احذر .. كن على حذر !..

اتجهت كل الأنظار الى ..

— « نعم .. المسألة كما يلى .. ليس من المسائل لعادية أن يقع حزب فى نزاع مع الاتحاد السوفييتى ، ومع مكتب استعلامات الأحزاب الشيوعية ، فهى مشكلة خطيرة ، يضطر المرء الى التفكير فيها ، هل يكون عجبا أن يفكر المرء فى هذه المسألة » ؟

قاطعنى أحد المتعصبين للحزب الذى ظل صامتا حتى الآن :

— « قل لى بوضوح ودون دوران .. ما رأيك فى قرار مكتب استعلامات الأحزاب الشيوعية والعمالية ، وفى بيان حزبنا عن يوغوسلافيا ، أو ، هل تعترف بهذه الزعامة الخائنة فى يوغوسلافيا » ؟

كنت أتمنى أن أبوح بكل شىء ، وأروى لهم ما قرأته فى أشهر عام ١٩٤٨ م ، وما فكرت فيه حول هذا الموضوع وأى قرار توصلت اليه ، ولكنى تراجعت :

— « هناك بعض أشياء غير واضحة ، وأحب أن تكون لدى فرصة لمناقشتها . تبدو المشكلة خطيرة ، لدرجة أنى أرى أن من الضرورى معالجتها جذريا » .

— « ماذا تقصد من المعالجة الجذرية » ؟ سأل واحد آخر ، لم يفهم أعجوبة القيادى الذى تثقف سياسيا فى الاتحاد السوفييتى ، وهو الآن زنديق .

— « لا أفهم ألا يتحمل المرء فى الوضع الحالى للحزب مسئولية نشر منشورات كلا الجانبين . ربما لا يمكن وضع المشكلة على هذا النحو فى المعهد العالى للحزب أمام الطلبة ، ولكن ألا يمكن لأعضاء هيئة التدريس فى المعهد العالى للحزب أن تقرأ المنشورات اليوغوسلافية ،

وتناقش هذه الأشياء بالتفصيل ؟ وتتعلق المسألة هنا أخيرا بنظرية سياسية أيديولوجية وحتى جزء منها يتعلق بمشكلة نظرية » •

قاطعنى أول المتعصبين للحزب :

ـ « أنت مخطىء أيها الرفيق « ليونهارد » •• فالمسألة اليوغوسلافية ليست سياسية ، بل ادارية » • قال ذلك بنغمة قاطعة •

« ادارية » ـ أعرف هذه الكلمة ، فقد نقدت عمليات القبض الواسعة فى الفترة من عام ١٩٣٦ م ـ ١٩٣٨ م تحت ستار هذه الكلمة • كانت الاشارة واضحة • لقد تجاوزت الحدود الممكنة فى مثل هذه الظروف ، ولم يبق سوى درجة واحدة ، فاذا وصلتها ، فلن أترك حرا بعد هذا التحقيق •

ـ « نقترب الآن من النهاية • ان من المعروف لك أيها الرفيق « ليونهارد » أن كل المسائل السياسية والشخصية لهيئة التدريس فى المعهد العالى للحزب ، يفصل فيها مباشرة ، فى المكتب السياسى للحزب • وينطبق هذا الاجراء على هذه الحالة بنوع خاص ، ولذا فسوف يرفع تقرير عن التصريحات العدائية للحزب وعن جلسة اليوم الى المكتب السياسى • وسوف تخبر فى مدى أيام قليلة بالقرار الذى سيتخذ فى حالتك » •

* * *

هروبى الى بلغراد

« فى مدى أيام ••• » قال ذلك ، اذن ، فعندى فسحة من الوقت • دخلت اللجنة الى مكتب العميد ، وبقيت وحدى •

غادرت المبنى الرئيسى للمعهد بخطوات بطيئة متجها الى سكنى ، وهو يقع فى « فيللا » مباشرة أمام مدخل يقف عليه الحراس دائما • من الممكن أنى وضعت الآن تحت الحراسة المشددة ، ولهذا قررت ألا أعمل شيئا يمكن أن يثير الشكوك حولى • أخذت معى من سكنى أصغر حقيبة ، وهى ما يحملها عادة كل مدرس غالبا ، اذا ذهب الى محاضرته •

ألقيت نظرة أخيرة على الحجرة ، فقد كان لا يزال هناك بعض

الأشياء المهمة ، بعض الرسومات من أيام العمل فى « مجموعة أولبريخت » وعشرون صفحة تقريبا من محضر جلسة مع المارشال « شوكوف » ، وخطابات من والى قياديين ، ولكن ليس فيها شىء سياسى مضر • لا يمكن أن آخذها معى ؛ ربما يفتشوننى عند بوابة المعهد الرئيسية ، فلو وجدت هذه الأشياء معى ، لخسرت كل شىء • ولم أستطع احراقها • وهكذا تركتها كما هى ، ثم ارتديت معطفى وعزمت على الخروج •

قابلت فى الطريق أحد السائقين ، وهو الذى كان يوصلنى دائما الى المدينة • لم يكن يعلم شيئا حتى هذه اللحظة ؛ فلا زلت بالنسبة له قياديا يشار اليه بالبنان •

— « أيها الرفيق « ليونهارد » •• أنا ذاهب الآن الى منزل الوحدة ، هل تحب أن تأتى معى » ؟

— « نعم » • أجبته بنغمة رزينة • وهكذا بدأت رحلة هروبى فى احدى عربات المعهد • وقفنا عند البوابة ، فنظر الى الحارس ، ثم أعطى للسائق اشارة باستئناف السير • اذن ، لم يبلغ بشىء بعد •

أوصلتنى السيارة الى محطة مترو الأنفاق « دوبل » التى تقع مباشرة عند الحدود بين قطاع برلين الغربى وبين المنطقة السوفييتية •

فقلت للسائق : « أريد أن أنزل هنا » •

— « الى اللقاء أيها الرفيق « ليونهارد » •

— « الى اللقاء » •

لم أعلم الا بعد مرور عام عن طريق طالب فى المعهد انفصل عن « الستالينية » بعدى ، أن هذه الرحلة بالسيارة وصفت بأنها كانت رحلة غاية فى السرية ، وأعلن فى اجتماع فى المعهد بعد هروبى : « أن مما يفوق كل شىء ، أن بلغت به الصفاقة حدا جعله يهرب بسيارة المعهد العالى » !

واصلت السيارة طريقها ، فاختفت عن نظرى ، ثم سافرت بالمترو الى سكنى الثانى فى « بانكوف » ، فارتديت شيئا ثقيلا ، وحزمت اللوازم

الضرورية فى حقيبة صغيرة ، وقلت للقياديين الذين أسكن معهم ، أنى مسافر لانجاز مهمة خاصة ، وأنى سأتغيب عن السكن أسبوعا •

وبهذا بدأت رحلة الهروب — التى أعد لها منذ وقت طويل — من حى « بانكوف » فى برلين الى بلغراد •

دخلت أولا « كابينة » التليفون واتصلت بثلاثة أرقام : « سينتهى مقالى فى مساء اليوم » قلت ذلك فى حديثى التليفونى لأمى ، لأننا كنا قد اتفقنا على هذه الاشارة كدليل على الهروب •

وقلت نفس الجملة لصديقتى « الزى » التى كانت استعدادات هروبها هى الأخرى قد تمت ، وسافرت بعدى مباشرة فى احدى السيارات هاربة الى يوغوسلافيا • ثم جاءت المحادثة الثالثة ، كلمة السر لبدء رحلة الهروب • كانت عقارب الساعة تشير الى الخامسة مساء •

وصلت سيارة الى المكان المتفق عليه بعد خمس عشرة دقيقة •

— « مستعد » ؟

— « مستعد » •

— « حسنا » •

كانت الساعة فى ذلك الوقت هى الخامسة والربع • وبعد ذلك بخمس ساعات ونصف — أى فى الساعة الحادية عشرة الا ربعا — كنت على بعد بضعة كيلومترات من الحدود • كانت هذه هى الحدود بين المنطقة الألمانية الواقعة تحت سيطرة الاحتلال السوفييتى وبين تشيكوسلوفاكيا •

— « هنا » • قال مرافقى ذلك ، فنزلنا من السيارة ، ودخلنا مقهى صغير ، فسار أمامى متجها الى منضدة يجلس عندها رجلان • تبادلنا التحية ، وتكلمنا بعض جمل لا ضرر فيها •

— « أعتقد أننا نستطيع الذهاب الآن » قال أحدهما ذلك ، بعد أن وازنا بين حساباتنا ، أعدت التجهيزات الأخيرة فى منزل صغير • أخذ أحد الرجلين الذى سيوصلنى الى الجانب الآخر من الحدود « رزمة » من ورق البنكنوت • لم يعرف من أنا •• ولم يهتم بى أيضا ، فلم ير سوى توصيلى بسلام الى الناحية الأخرى من الحدود ، ويعود هو

نفسه الى هذا المكان ، لأن فى انتظاره مبلغا كبيرا ، سيأخذه بعد اتمام العملية بنجاح •

نظر الى نظرة فاحصة ، فارتاحت نفسه ، عندما رأى أننى أرتدى حذاء برقبة عالية ، وقد هيأت نفسى تهييئا كاملا لمثل هذه الرحلة •

— « هل تستطيع التحمل » ؟

— « نعم •• فقد تعودت على مثل هذه الأشياء » •

— « ماذا ؟ •• فلا زلت صغيرا ، اذن لننطلق » !

رجعت السيارة التى أحضرتنى بمرافقى • والآن •• أصبحت كلية فى يد قائد تهريب عبر الحدود •

تركت المعهد العالى للحزب منذ سبع ساعات ، فاذا لاحظوا اختفائى ، فسوف يسألون عنى — هكذا قدرت — أولا عند القياديين الذين يسكنون معى فى « بانكوف » ، وسوف يخبرونهم بما قلته لهم : « أنا فى مهمة خاصة » • وقبل اتمام البحث فى مراكز الحزب المختلفة ، سوف تنقضى أيام عديدة • ولحسن الحظ تحاط المهمات الخاصة بسرية تامة • فلدى أمكانية التقدم فى رحلة الهروب •

— « يجب علينا الاسراع فى المشى » همس مرافقى فى أذنى • لا زال باقيا على الحدود أربع كيلومترات ، ثم بعد ذلك يجب علينا الحذر التام •

كنا — بعد ساعة — أمام الحدود مباشرة • لم نتلفظ بكلمة • كان مرافقى ينظر بين الحين والآخر الى ساعته • كانت الواحدة بعد منتصف الليل ، وكان يجب علينا أن نصل الى الجانب الآخر قبل بزوغ الفجر ، وفجأة احتضننى مرافقى ، وانبطحنا أرضا • كانت قناة صغيرة لا ماء فيها أمامنا ، وكانت هى الحدود •

— « تشيكوسلوفاكيا » همس فى أذنى مشيرا بيده الى شاطىء القناة الآخر • مشينا على أطراف أصابعنا ، وعبرنا القناة ، وفجأة رفع مرافقى رأسه ، وأعطانى اشارة ، فانبطحنا على الثلوج •

استطعت سماع أصوات فى هذه اللحظة ، وبدت قريبة منا • مضت دقيقة أو دقيقتان ثقيلتان ومؤلمتان جدا • هم بالتأكيد حراس الحدود ، فهم يتحدثون باللغة الألمانية ، ما العمل ؟ ودارت بذهنى الأفكار ! ماذا

أقول لو ضبط فى هذه اللحظة ؟ هل ينبغى أن أعرفهم بأنى مدرس فى المعهد العالى لحزب الاتحاد الاشتراكى الألمانى ؟ ماذا ينبغى أن أقول ؟

كيف أفسر وجودى هنا ليلة الأحد بالذات على الحدود بين المنطقة الألمانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتى وبين تشيكوسلوفاكيا .

وفجأة نظرت مرتعبا ! لماذا وقف مرافقى ؟ الآن — هكذا بدا لى — جاءت نهايتى ، ولكنه أشار لى أن أتبعه بهدوء :

— « لا تخف .. فهم أيضا هاربون عبر الحدود مثلنا ، أعرفهم » قال هذا واتجه الى المجموعة ، وسرت خلفه ، فمدوا لى أيديهم مسلمين دون أن يقولوا كلمة . جاءوا من تشيكوسلوفاكيا ببضائع مهربة . قدم أحدهم سجائر .

سيدخنون هنا على مسافة لا تبعد خمسة مترات من الحدود ؟ — قلت هذا لنفسى عندما بدأ أحدهم يشعل لنا السجائر .

حاولت أن أسحب مرافقى بعيدا عنهم ، ولكن لم أستطع .

— « لا تخف .. ففى هذا الوقت هدوء تام فى المنطقة » وأمن آخر — يبدو أن عنده خبرة واسعة فى عبور الحدود بطريقة غير شرعية — على هذا الكلام بايماءة من رأسه . لم تهدأ أعصابى بهذه الحجة . اذا ضبطت هنا فسوف أنال من لعقاب أكثر مما يناله المهربون .

تحدثوا فى أثناء ذلك عن الأماكن التى يحصل فيها المرء على البضائع المطلوبة بأرخص الأسعار ، وفى أى مكان فى المنطقة الألمانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتى يستطيع المرء بيعها بثمن أكبر .

لم تنته استراحة شرب السجائر ، وبدت لى طويلة ، طول الدهر كله ، وكنت دائم المحادثة لجذب مرافقى لنكمل رحلة الهروب عبر الحدود ، ولكنه كان متصلبا ، مثل عابر الحدود المحنك .

وأخيرا انتهت تلك الدقائق المرعبة . فاستحثنى مرافقى قائلا :

— « أسرع .. فأمامنا ساعتان سيرا على الأقدام ، حتى نصل الى المنزل الذى ينتظرنا فيه أصدقاؤنا » .

كانت الساعة الثالثة صباحا : والهواء البارد يلفح وجوهنا — واصلنا سيرنا فى الطريق الصحيح .

— « زال الخطر الآن ، فلا نحتاج هنا الى اتخاذ حذر شديد ، فحرس الحدود التشيكية يتكاسلون فى هذا الوقت » • هذا مرافقى أعصابى بهذه الجملة • تشجعت الآن ، لأن الخطر زال ، ولأننا أصبحنا على مسافة قصيرة من الهدف المتجهين اليه ، وهو منزل أصدقائه •

وبعد ساعة ونصف رأينا قرية صغيرة مكسوة بالثلوج البيضاء • كانت عقارب الساعة تشير الى الرابعة والنصف •

— « يجب أن نسرع حتى نصل هناك قبل الساعة الخامسة حتى لا يرانا أحد » •

وعندما اقتربنا سمعنا نباح الكلاب ، فأشار مرافقى بأن أنبطح على الأرض ، فانبطحت •

— « هناك يكون المنزل » همس فى أذنى مشيرا الى منزل خشبى صغير فى أطراف القرية • والآن •• نتحرك بحذر شديد مثل ما فعلنا عند الحدود التشيكوسلوفاكية •

— « لا أحد هنا •• أسرع » • اتجه بخطوات سريعة نحو المنزل ، وسرت وراءه على مسافة قريبة • ثم سمعت طرقا معينا فانفتح الباب ، فتنفست الصعداء • وصلنا بسلام ، فحيت ربة البيت وابنتها مرافقى بحرارة ، وكانتا تتحدثان باللغة الألمانية •

ثم خلعنا ملابسنا المبتلة ، فنشرت لتجف ، وقدم لنا الشاى الساخن •

أراد مرافقى أن يعود أدراجه بعد بضعة ساعات ، فسألتنى ربة البيت : « وأنت » ؟

ظللت صامتا ، ولكنه أجابها نيابة عنى : « يجب أن نوصله الى « بودموكلى »(١) حيث ينتظره صديق هناك سيساعده على اتمام رحلته » •

— « متى يجب أن يكون فى « بودموكلى » ؟

— « بين الساعة الثانية عشرة والواحدة ظهرا » •

— « ولكن هذا صعب جدا ، فقد انقطع مرور السيارات فى الأيام الأخيرة من هنا الى « بودموكلى » •

---

(١) الاسم التشيكى لمدينة « بودينباخ » •

كانت هذه ضربة كبيرة لى ، فلا زالت أفكارى معلقة بأن أصل الى « بودموكلى » فى أمان •

— « ألا توجد وسيلة أخرى » ؟ ترددت ربة البيت ، ثم قالت :

— « سوف يسافر اليوم أحد أعضاء المجلس المحلى للجبهة الوطنية بالعربة المتزحلقة على الجليد الى مدينة « تيبليتس » وربما يكون من الممكن أن يأخذك معه ، ثم تستطيع أن تسافر بالقطار من هناك الى « بود موكلى » •

لم يكن اقتراحا سارا — بل من الممكن أن يكون خطيرا — لكن لم يكن لى خيار • وفجأة سمعنا طرقا على الباب •

فقالت ربة البيت همسا : « ادخلا هنا » ، وقبل أن أدرك حقيقة ما حدث ، وجدت نفسى فى حجرة صغيرة ، وقد أغلق علينا بابها •

دخل الزائر المنزل ، ووقف قريبا من الباب الذى كنا خلفه ، ومرة أخرى قضيت دقائق مرعبة •• وأخيرا انصرف الزائر •

— « يجب أن أذهب الى « بودموكلى » • كررت هذه الجملة مرارا • كانت ابنة ربة البيت قد ذهبت للبحث عن وسيلة للسفر •

وعادت أخيرا بعد ساعة •

— « وافق الرجل — الذى هو عضو فى المجلس المحلى للجبهة الوطنية — على أن يأخذ معه أمى الى مدينة « تيبليتس » وكذلك القريب الذى عندنا » • قالت ذلك مبتسمة . وهى تشير الى •

كان شعورى نحو هذه الرحلة متضاربا ، وخاصة أنى لا أعرف كلمة واحدة من اللغة التشيكية • ولكن ربة البيت طمأنتنى :

— « لا تخف ، فهو رجل صامت جدا ، فلن يسأل عن شىء اطلاقا ، وليس عليك سوى أن تسلم عليه ، ثم اذا وصلنا تودعه » •

قضيت الساعة التالية فى حفظ العشرين كلمة من اللغة التشيكية عن ظهر قلب •

وبعد ساعة كنت قد حفظتها تماما •

— « هل هذا نطقا صحيحا » : « ناسكلادونا » ؟

— « ممتاز .. فأنت تتحدث مثل تشيكى أصيل » .

وعندما وصلت العربة المتزحلقة على الجليد ، حييت القيادى المحلى باللغة التشيكية ، ونجحت فى ذلك ، فلم يشك فى شىء .

وصلنا الى « تيبليتس » بعد ساعة .

« ناسكلادونا » ، قلت له هذه الكلمة عند الوداع ، كما لو لم أودع أحدا فى حياتى كلها بغير هذه الكلمة .

سيتحرك قطار بعد دقائق قليلة الى مدينة « بودينباخ » ، وبدا لى أن الحظ يحالفنى ، فسوف أقابل صديقى بعد وقت قصير ، اذ من المتفق عليه أن ينتظرنى عند محطة السكك الحديدية على اليمين . وستكون الخطوات التالية أسهل مما سبق .

« بودموكلى » كتبت بالخط العريض على المحطة .

أسرعت مع ربة البيت التى لا زالت ترافقنى الى خارج المحطة .

لم يكن صديقى موجودا هناك .

نظرت الى الساعة فوجدتها تشير الى الخامسة والنصف ، تأخرت أربع ساعات تقريبا عن الموعد المتفق عليه .

— « ربما ذهب لقضاء حاجة . وسيعود » حاولت مرافقتى تهدئتى .

تسكعنا فى شوارع المدينة ساعة ونصف ، وكنا نعود بين الحين والآخر الى محطة السكك الحديدية .

لم يظهر أى أثر لصديقى .

— « ما العمل الآن » ؟

قالت مرافقتى : « سأعود أدراجى » لقد نفذت مهمتها ، فأوصلتنى الى « بودينباخ » . لن أعتبر تصرفها تصرفا سيئا ، لو تركتنى الآن .

استبدلت منها بعض النقود ، فأصبح معى على الأقل بعضا من العملة التشيكية فى جيبى ، كى أشعر بالاطمئنان نوعا ما .

قضيت نصف ساعة أخرى ، أتمشى أمام المحطة جيئة وذهابا ، دون أن أقرر ماذا أفعل ! ثم قررت السفر الى بلغراد بمجهودى الخاص .

وعندما كنت أحاول معرفة ماتدل عليه لوحة الاشارة التشيكية فى المحطة ، اتجه الى موظف فى المحطة وخاطبنى باللغة التشيكية .

فقلت له باللغة الروسية : « لا أفهم اللغة التشيكية ، وأرجوك أن تساعدنى فى الحصول على تذكرة الى براغ » .

انحنى موظف المحطة انحناءة قصيرة ، ثم أخذنى الى شباك التذاكر ، وطلب لى تذكرة من عامل الشباك .

سيتحرك القطار بعد دقيقتين ..

أخذنى بأدب وذهب بى الى الرصيف الذى يقف عليه القطار ، ثم تحرك القطار بعد ذلك مباشرة ، وبعد دقائق قليلة استغرقت فى نوم عميق ، بعد أن قضيت أربعا وعشرين ساعة مثيرة للأعصاب .

ـ « براها » ـ لكمنى أحد المسافرين ، فنزلنا جميعا ، كانت عقارب الساعة تشير الى العاشرة والنصف مساء .

لا زال فى رأسى شيئا واحدا : اسم الشارع ورقم المنزل . كان هذا هو العنوان فى براغ ، أخذته احتياطيا للاستعانة به فى حالة عدم التوفيق فى « بودينباخ » .

كانت معرفتى ببراغ قليلة ، أخذت صورة عنها فى صيف عام ١٩٤٧ م ، ولكن لم يكن من الصعب العثور على المنزل .

كلما اقتربت من المنزل قوى أملى . بعد دقائق قليلة ، سوف أعثر أخيرا على حلقة الاتصال مع صديقى الذى سيساعدنى على مواصلة السفر الى بلغراد .

هناك ! يكون السكن المنقذ .

طرقت الباب .. فلم يرد أحد ..

مرة أخرى .. لا جواب ..

عاودت طرق الباب مرارا ..

لا أمل فى الجواب .

أصبح وضعى الآن خطيرا . كنت وحدى فى براغ ، وليس معى من النقود التشيكية الا شيئا قليلا نسبيا ، ولا أحد هناك أستطيع الذهاب اليه ، وخاصة : جاوزت الساعة الحادية عشرة مساء .

ما العمل ؟

أأذهب الى فندق ؟ مستحيل ، فلا أعرف اللغة التشيكية ، وليس معى أوراق رسمية تشيكية • وظهور أجنبى هناك ، سيبلغ عنه فورا •

هل أتجول طول الليل ، فى الشوارع ؟ خطر جدا ، وخاصة بعد الساعة الثانية عشرة بعد منتصف الليل ، ذ يمكن جدا أن ألفت النظر ، فأستوقف ويطلب منى أوراقى الرسمية •

هل أسافر الى ضاحية ، فربما أجد هناك فرصة المبيت عند فلاح ؟ كان الوقت متأخرا جدا لتنفيذ هذه الفكرة •

حاولت أن أعصر ذهنى لتذكر كل الارشادات التى تعلمتها فى مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية فى مادة « النشاط السرى » ، ماذا يفعل انسان فى عاصمة بلد ليس معه منها أوراق رسمية ، ولا يجيد لغتها ، فى الساعة الحادية عشرة مساء وليس معه سوى نقود قليلة • لم نتعلم مثل هذه الارشادات آنذاك •

اتخذت قرارا بعد دقائق قليـــلة ، يجب أن أخرج أولا من المنطقة والشوارع الخالية من الناس ، وأذهب الى أى مكان آهل بالناس ، وهناك أحاول — وفى هذه المحاولة مغامرة كبيرة — أن أجد مكانا أقضى فيه هذه الليلة •

من الأحسن أن أعود الى محطة السكك الحديدية • وعندما وصلت الى هناك كانت عقارب الساعة تشير الى الثانية عشرة الا ربعا • شعرت بالاطمئنان هناك ، فلم أكن وحدى • ولم تكد أعصابى تهدأ بهذا الشعور ، الا وأصابنى الفزع مرة أخرى ، عندما نظرت بطريق المصادفة من فناء المحطة الى صالة الانتظار ، فرأيت اثنين من الشرطة التشيكوسلوفاكية منكبين على فحص أوراق رسمية •

تحطمت أعصابى • هدوء •• هدوء •• لا تظهر قلقا ! سرت بخطوات بطيئة الى « التواليت » وأغلقت الباب ورائى • وطبعا أننى كنت أعلم أنه ليس مكانا أمينا • ولكنى استطعت أن أفحص حقيبتى ، وأمزق كل ما من شأنه أن يثير الشكوك •

وعندئذ سمعت طرقا على باب المرحاض ، وصوتا يصيح باللغة

التشيكية ، وعندما فتحت الباب ، رأيت — لحسن الحظ — أنه لم يكن شرطيا ، بل موظفا من موظفى السكك الحديدية .

وضعت يدى على جبهتى ، وتحدثت متوجعا باللغة الروسية : « آسف .. فأنا متعب جدا ، لأنى قد شربت كثيرا » .

انفرجت شفتا الموظف ، كما لو كان يريد الضحك ، فمنع نفسه ، ثم رافقنى حتى خرجت من المحطة .

هربت من التفتيش على الأوراق الرسمية ، ولكن كم عدد المجموعات المنتشرة هذه الليلة فى المدينة تفتش على الأوراق الرسمية ؟ .

أشعلت لنفسى سيجارة على السلم أمام المحطة ، وكان يقف بجانبى رجل فى منتصف العمر ، فقدمت له سيجارة دون أن أتلفظ بكلمة ، فأخذها ، وقال شيئا باللغة التشيكية .

— « للأسف .. لا أعرف التشيكية ، بل الروسية والألمانية فقط » ، قلت ذلك باللغتين وراء بعضهما .

ففضل أن يتحدث معى باللغة الألمانية .

— « من أى البلاد أنت » ؟

— « من برلين » لم أكن — بعد ما حصل لى كل هذا — فى وضع أستطيع فيه رواية قصة مختلقة .

ربما يستطيع أن يُدلنى على مكان أبيت فيه هذه الليلة ، فبدأت الحديث بحذر :

— « فى الحقيقة ، كان ينبغى على أن أواصل السفر هذا اليوم ، ولكن الأمور لم تجر كما أردت . وعليه فلا أستطيع السفر الا غدا ، ولا أدرى أين أستطيع قضاء هذه الليلة » .

— « الى أين تريد أن تسافر » ؟

قررت أن أضع كل شىء على ورقة واحدة ..

— « الى بلغراد » .

— « الى بلغراد » ؟ همس بهذه الكلمة مضطربا ، وهو ينظر حوله .

— « تعال معى .. لقد انتظرت شخصا اليوم ، ولكن على كل حال لن يأتى . تستطيع أن تنام عندى » .

أسرعت فى الابتعاد عن المحطة • كنت أبذل مجهودا كبيرا للمحافظة على المسافة بيننا وهو يسير أمامى بسرعة • هل كان هذا رعونة كبيرة منى ، أن أقول لانسان لا أعرف عنه شيئا ، أنى أريد السفر بالذات الى بلغراد ؟

الى أين يقودنى ؟ هل سيأخذنى حقيقة الى بيته ؟ هل أهرب منه ؟ ولكن الى أين أذهب ؟ ••

قضينا ربع ساعة تقريبا سائرين على الأقدام ، ثم وجدت نفسى فى شوارع خالية من الناس •قال هامسا : « ليس بعيدا من هنا » •

وأخيرا وقف أمام منزل ، وأخرج المفتاح من جيبه ، وفى هذه الأثناء بحثت بنظرة سريعة عما اذا كان هناك أى لافتة تشير الى أن هذا المنزل مقرا لادارة حكومية • لا ! كان منزل سكن ، ولكن هل كنت — لهذا — مطمئنا ؟ ألم تكن أشد الادارات الحكومية خطرا هى التى لا تعلق عليها « لافتات » من الخارج ؟ ولكن على كل ، كان عندى شعور بالاطمئنان فى أن أتبعه •

وقف فى الدور الثالث ، وفتح الباب ، وعندما دخلنا ، لاحظت أننا فى مسكن بسيط يتكون من حجرتين •

وفجأة خرج رجل من احدى الحجرتين ، فانكمشت رعبا •
فطمأننى قائلا : « لا تخف •• فهو صديقى » •
فسأل الرجل : « ألمـانى » ؟
— « نعم •• يريد السفر الى يوغوسلافيا » •
فرأيت مرة أخرى الاندهاش ، والنظرة السارة •

— « آمل أن تصل بسلام » • لاحظت أثناء استمرار الحديث أن كلا الرجلين لا يصدقان — مثلى — اتهام يوغوسلافيا الرسمى •

أشار الرجل الذى جاء معى من المحطة لصديقه بالكف عن الحديث الذى تحول الى مناقشة •

— « دعه يرتاح •• فهو يقطع طريق هروبه الى يوغوسلافيا ، ولاشك أنه قاسى كثيرا فى الأيام المـاضية وهو يقطع هذا الطريق ، فلنتركه ينام » •

هيئا لى مكانا للنوم ، وتمنيا لى نوما هادئا .

استطعت أن أرقد مستريحا من هذا الكابوس ، الذى كان يجثم على صدرى ، قبل أن أقابل هذا الرجل . ماذا حدث لى فى مدى الأربع وعشرين ساعة الماضية ؟ الهروب من المعهد العالى للحزب ، وعبور الحدود ، والسفر الى « بودموكلى » وبراغ ، والليلة المرعبة التى استولى الرعب فيها على أعصابى — قطعت كل هذا حتى الآن . كنت منهك القوى ، فراحت عينى فى النوم بسرعة ، ولم أفكر فيما سيحدث فى اليوم التالى . نودى على فى الصباح الباكر : « هالو .. أيها المسافر الى يوغوسلافيا .. انهض ، فنحن مضطرون الآن الى الذهاب الى العمل » .

ارتديت ملابسى بسرعة .

— « هل ستواصل سفرك اليوم » ؟

— « نعم .. فأنا متأكد أن كل شىء سيتحقق ، وأشكركم جدا جدا ، فلو لم أقابلك ما اهتديت الى مكان أنام فيه » .

— « لا شىء يستوجب الشكر ، يجب على المرء فى عصرنا هذا تقديم المساعدة للذين يهربون ، وأتمنى لك رحلة طيبة الى يوغوسلافيا ، فاذا وصلت الى هناك ، فقل انه لا زال يوجد تشيكيون يحافظون على صداقتهم مع يوغوسلافيا » .

وعدته بذلك .

سرت فى المدينة بخطوات بطيئة ، فالتجول الآن فى شوارع براغ ليس خطيرا ، فالشوارع مليئة بالناس ، ولن يلفت وجودى نظر أحد .

طرقت — فى الساعة التاسعة صباحا — الباب الذى انتظرت أمامه ليلة أمس دون فائدة . فتح الباب فى هذه المرة وسلم على صديقى ، فخف العبء الذى أحمله على كاهلى .

— « رائع وجودك هنا .. فقد اعتقدت أن المسألة فشلت » .

رويت له ما حدث لى ، فأخبرنى بأنه انتظر عند محطة السكك الحديدية فى « بودينباخ » حتى الساعة الخامسة ، ثم رجع الى براغ بالعربة على اعتقاد أنه سيقابلنى هناك . وعندما لم يجدنى فى براغ ، عاد سريعا الى « بودينباخ » وهكذا لم نقابل بعضنا .

— « المهم أنك الآن هنا • وسوف نرتب الأمور لاستمرار العملية بنجاح ، وسوف تصل فى أقرب وقت الى بلغراد » •

كان تاريخ اليوم هو ١٤ مارس • هدأت الآن ، فقد عثرت على الاتصال بأحد القياديين المعارضين لسياسة الحزب ، الذى له خبرة واسعة فى هذا المجال ويعتنق المبادىء التى أعتنقها •

مضت على أيام ، شدت فيها أعصابى حتى كادت تتمزق ، ولم أعلم قط ، ماذا ستأتى به الساعات القادمة ، ولكنى أقترب رويدا من الهدف : بلغراد •

ولن أنسى ما حييت هؤلاء الناس الذين ساعدونى فى طريق هروبى الى يوغوسلافيا • لقد كانوا أعضاء معارضين فى الحزب • فوقفوا بجانبى عن اقتناع ، ومن المسلم به أننى لن أذكر أسماءهم ، ولا الأماكن التى حللت بها •

وأخيرا وصلت الى بلغراد فى يوم ٢٥ مارس ١٩٤٩ فى تمام الساعة السادسة مساء • كان هذا محط رحالى • استمرت رحلة هروبى ثلاثة عشر يوما ، كنت كمن انزاح عن صدره كابوس كاد يودى به •

أخيرا فى يوغوسلافيا •••

اتصلت تليفونيا بأحد معارفى ، وهو قيادى فى الحزب الشيوعى اليوغوسلافى ، فوصل الى بعد نصف ساعة ، وأخذنى فى العربة الى مسكنه •

— « تستطيع أن تقيم عندى ، استرح أولا ، ثم نتحدث عن كل شىء فيما بعد » •

استدعيت بعد يومين الى الذهاب الى اللجنة المركزية للحزب الشيوعى اليوغوسلافى • قالت لى احدى السكرتيرات : « فليكو فلاهوفيك » ينتظرك » •

كان « فليكو فلاهوفيك » — كما عرفت — عضوا بارزا فى اللجنة المركزية ، ورئيس قسم الشئون الخارجية فى زعامة الحزب •

قال باللغة الروسية : « أنا مسرور جدا أيها الرفيق « ليونهارد » لوصولك بسلام » •

نظرت اليه باهتمام ، فخيل لى أنى رأيته قبل ذلك فى مكان ما ، ولكنى لم أتذكر بالضبط أين رأيته .. أما هو فقد عرف ذلك .

ـ « أنا أعرفك من قبل ، فقد كنت فى عامى ٤٢ ـ ١٩٤٣ م فى مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية فى « كوشتارينكوفو » . ثم نظر الى مبتسما : « ألم يكن اسمك فى مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية « ليندين » ؟

اندهشت جدا ، فعلى طول السنين السبعة التى مضت منذ ذلك التاريخ ، لم أخبر أحدا باسمى الحزبى ، الذى كنت أنادى به فى مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية .

ـ « والآن .. أيها الرفيق « ليونهارد » كيف تخيلت ما ستقوم به من عمل فى يوغوسلافيا » ؟

ـ « أريد أولا أن أبين للرفقاء المعارضين فى ألمانيا أسباب وتطور النزاع بين الحزب اليوغسلافى ، وبين مكتب الاستعلامات الشيوعى ، فقد عالجت النشرات التى ظهرت حتى الآن مشاكل لا يعلم عنها من الرفقاء الا القليلون ، ومن هنا فأحيانا يكون من الصعب عليهم تكوين صورة عن الموضوع » .

ـ « حسنا .. اكتب هذا ، وسوف نطبعه فى يوغوسلافيا باللغة الألمانية » .

اتجهت اليه سائلا : « هل من الممكن هنا أن نجد كاتبة اختزال تعرف اللغة الألمانية » ؟ أومأ برأسه ، فحلت هذه المشكلة .

ـ « حسنا .. سيكون هذا عملك فى الفترة التالية ، ولكن أى عمل دائم فكرت فيه » ؟

ـ « هل يمكن أن أعمل فى قسم اللغة الألمانية فى اذاعة بلغراد » ؟

رفع سماعة التليفون ، وتحدث حديثا تليفونيا قصيرا .

ـ « تستطيع أن تقابل فى الأيام التالية مدير اذاعة بلغراد ، وعقب انتهائك من كتابة الكتيب الذى ستعالج فيه موضوع النزاع ، ستتسلم العمل هناك » .

انتهت المقابلة وحل كل شيء فى لحظات قليلة •

لم يكن هناك تحقيق ، بل ترحيب برفيق أجنبى ، انفصل عن « الستالينية » • بعد نزاع داخلى دام فترة طويلة • كان اليوغوسلافيون يعرفوننى من قبل ، وكانوا يعلمون من تجاربهم الخاصة ، كيف يحدث مثل هذا الانفصال • لم أسحب أمام لجنة ، ولم توجد أسئلة مريبة ، ولا « بنزيون » يتحتم على المرء فيه كتابة تقارير ، ولا ضغط لانتزاع أى اعتراف » •

كنا فى نهاية مارس سنة ١٩٤٩ ، مضت سنتان تقريبا على زيارتى الأولى ليوغوسلافيا ، وتسعة أشهر منذ اعلان قرار مكتب الاستعلامات الشيوعى ، والانفصال عن موسكو • كانت آثار النزاع مع موسكو ظاهرة ، فقد تسبب الحصار الاقتصادى المضروب من البلاد الشيوعية على يوغوسلافيا فى قلة وجود البضائع • فسوف أعانى بعض الصعوبات هنا • لقد استبدلت الحياة الرغدة لقيادى كبير ، يتمتع بالحصول على الطرود الخاصة ، والسكن ، والعربة ، حياة مليئة بالتحريضات والأكاذيب ، استبدلت هذه الحياة بحياة تكتنفها بعض الصعوبات ، وربما أيضا — لم يستطع أحد أن يستكشف آنذاك ، ما ينتظر يوغوسلافيا مستقبلا — محفوفة بأخطار كبيرة • ورغم هذا كنت مسرورا جدا ، لأنى عثرت على بلد أهرب اليه ، بلد هدفه تحقيق بناء مجتمع اشتراكى دون تحكم جهاز طبقى ، واقامة اقتصاد مركزى موجه دون ارتكاب أعمال النظام الستالينى اللاانسانية ، واقامة مجتمع محرر من الطغيان و « موجات التطهير الستالينية » ، ومن تعليمات الحزب والفنانين والعلماء ، وعبادة الزعماء والتعصب المذهبى وخرافة السيادة •

غادرت مبنى الحزب فى بلغراد ، وأنا لا زلت غارقا فى التفكير ، فرأيت على حائط المنزل المقابل صور « ماركس » و « انجلز » و « لينين » ، ولم تكن صورة « ستالين » معلقة مع صورهم ••• وانتهت حياتى مع « الستالينية » •

* * *

[لم يمكث فى يوغوسلافيا طويلا ، بل هاجر الى النمسا وتجنس بالجنسية النمساوية ، ولا زال يعيش هناك حتى الآن ••] م • شامة •